أشباه تشبه الجنون

أشياء تشبه الجنون

محمود العلي

قصص قصيرة

دار الجندي للنشر والتوزيع

القدس

٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

❊

الطبعة الأولى (٢٠١٥)

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

أشياء تشبه

الجنون

محمود العلي

ابتسم فما زال الضوء في آخر النفق ...

إلى من علمتني كيف أبتسم أمي الفاطمة

إلى من شاركوني ليالي الحزن قبل هنيهات الفرح

إخوتي علاء العلي .. حلمي العلي.. أحلام العلي..

إبراهيم العلي

إلى من نفض الغبار عن قلمي .. أصدقائي جمانا

العتبة .. خميس جبر .. قاسم الاكراد

إلى الضوء آخر النفق .. إلى الأمل

محمود علاء العلي .. شام الأكراد .. إيمان الأكراد .. هنيبال ويافا جبر

الرجل... الحمار

يا حمار، يا حمار، يا حمار.

أمي، إخواني، أختي الأصغر مني "سناء"، التلاميذ في المدرسة أصدقاءً، وغير أصدقاء، معلمتي، الجميع كان يطلق علي هذا اللقب: "حمار".

لا أعرف لماذا؟ ربما، لأن الآنسة أديبة؛ صنعت أذنيّ حمارٍ من الورق، وألصقتهما برأسي، وأجبرتني على قضاء الاستراحة بهذا الشكل، وكلما تذكرت هذه الحادثة، تتصاعد النار الى رأسي، ويغلي دمي في عروقي.

كنتُ أتساءلُ، دائمًا: لماذا فعلتْ بي ذلك؟ هل لأنّي لم أعرف من أتى قبل الآخر؛ الدجاجة أم البيضة؟ عندما سألتني هذا السؤال الغريب، والمعجز لطفل في الصف الخامس الابتدائي، مع العلم أني لا أعرف الإجابة، حتى بعد مرور اثنتي عشرة سنة على ذلك السؤال!

أم أن السبب هو ما حدث معي في عيد المعلم. عندما طلبت منّا الآنسة أديبة أن نلعبَ معها؛ حيث نضع رؤوسنا على مقاعدنا

الخشبية ونغمض أعيننا، وأن ننام ثم نخبرها بما حلمنا. فغفا الجميع، بعد برهة من الزمن، لكني كنت أغفو في الحصص الدراسية كثيراً، فلم أشعر بالنعاس.

بعد قليل من الوقت، مللت اللعبة ورفعت رأسي، فإذا بالآنسة أديبة تحمل بيديها حمالة صدر حمراء، مرقطة بنقاط بيضاء، وتحاول أن تحشو صدرها الكبير داخلها، وكأنها تحشو بطيختان في جورب صغير، وعندما انتبهت لي؛ حاولتْ أن تخفي ما كانت تفعله بسرعة. ولكن بعد فوات الأوان.

عرفتُ، فيما بعد، أن هذه الحمّالات هدية والدة أحد التلاميذ للآنسة، وقد فتحها رغم تحذيرات والدته ، لكن فضوله كان أكثر إلحاحاً من تنبيهات أمه، فامتدت يده إلى الهدية ليعرف ما فيها.

فعلت الآنسة بي ما فعلته، كعقاب لمشاهدتي ذلك الصدر المكوّر، وربما ذلك يفسر أيضا سبب إطلاق التلاميذ هذا اللقب عليّ. أما والدتي وأخوتي ، فمع أنّهم يعرفون أنني إنسان ذو مشاعر، كغيري من الناس، إلا أنهم أيضا ، كرروا ذلك، وكأنهم جميعاً اتفقوا على ذلك.

كنت أواسي نفسي دائماً، بأنّ " الأيام كفيلة بأن تمحوَ هذا اللقب اللعين من ذاكرة الناس، ومن ذاكرتي أيضًا".

ما حدث بعد ذلك يفسر أنّ ما فات ليس فظيعاً بما فيه الكفاية، فقد وقعتُ في حبِّ فتاةٍ ساحرةِ الجمالِ. وبعد معاناةٍ كبيرةٍ وسهرٍ وانتظارٍ، تحت أشعة الشمس الحارقة أمام مكتب البريد الذي كانت تعمل فيه كموظفة، قررت أن أبوح لها بما في خاطري، فانتظرتها عند خروجها من مكتب البريد؛ تقدمت نحوها، وسلمتُ عليها بارتباك، فردت التحية بمثلها ربما بسبب زملائها الذين أنهوا عملهم، وبدأوا بالانصراف، وقد أخذوا يرمقوننا بنظرات غريبة، أو ربما لأنها لم تتحدث معي من قبل، على الرغم من أنها ابنة جارنا منذ ولدت.

تشجعت، فلملمت أجزائي وحزمت أمري، وقلت لها : يا آنسة ليلى أنا علي؛ لا بد أنك تعرفينني؟ فأجابتني بسخرية مبطّنة: وهل يوجد أحد لا يعرفك؟ شعرت باطمئنان رغم توجّسي، لكن حديثها لي يسّر علي مصارحتها،فقلت لها دفعة واحدة: يا ليلى أنا أحبك، وأريد التقدم لطلب يدك، إن لم يكن لديك مانع طبعاً.

تحول وجه ليلى من اللون الأبيض المشرّب بالعنبي إلى لون داكن. وليس لون وجهها ما تغير فقط، بل جميع ملامحها. والأخطر من ذلك أن صوتها الشفاف، الهادئ، الذي يبدو كالهمس، تحول إلى صوتِ مساعدٍ في الجيش، وصرخت في وجهي: ألستَ من يُلَقِّبونه بالحمار؟

لم أنبس ببنت شفة؛ لأن الموظفين تجمعوا حولنا؛ كما يتجمعون حول عربة الموز في يوم قبض الرواتب، فاستأنفت، قائلة: وهل ترى أنه من الممكن أن تتزوج فتاة، ذات حسنٍ بديعٍ وسمعة عطرة بحمار؟

نزلت كلمات ليلى كالرصاص على مسمعي، فركضتُ مسرعًا دون أي هدى؛ هربًا من صوتها، ومن نظرات الموظفين التي تحولت الى دبابيس تَخِزني في كل أنحاء جسمي.

ولكي أنسى هذا اللقب اللعين، وأنسى عيني ليلى الجميلتين. ولكي ينساني الناسُ، قليلا، ولكي أكمل دراستي الجامعية، وهذا أهم ما في الأمر، قررتُ أن أسافر إلى بيروت.

فور وصولي إلى المدينة الساحرة، التي تشبه ليلى كثيرًا، بحثتُ عن غرفة للسكنِ. وفعلا ، ودون عناء كبير، استطعتُ أن أجد غرفةً أسكنها مقابلَ إيجار بسيط.

بدأ دوامي الجامعي، ومضت الأيام، ذات الطعم الحلو، مليئةً بالحب والنساء والفرح، وأهم شئ أنها خالية من ذلك اللقب اللعين. وكان أهل بيروت لا يعرفون أي حيوان يطلق عليه اسم حمار.

في إحدى هذه الليالي، وعندما رجعت إلى غرفتي، أحسست أن ألمًا فظيعا قد هاجم أسفل ظهري. مررتُ بأصابعي على مكان الألم، فأحسست بانتفاخ يكاد يشق جلدي. فدخلت الحمام، لعلي أعرف ما هذا الشيء المنتفخ في أسفل ظهري؟

فور أن نزعت ثيابي أمام المرآة المتكئة على جدار الحمام الداخلي، أحسستُ وكأن كابوسًا هاجم جمجمتي، وأن سكينًا غادرًا قد غرز في أعصابي. فصرخت، ليس من الألم، بل من شدة الدهشة، عندما رأيت شعرًا رماديًا كثيفًا يغطي أجزاء من جسمي، أما الانتفاخ الذي يغطيه الشعر الرمادي، فلم أعرف له سببا.

أسئلة كثيرة دارت في رأسي حينها: ما هذا الطفح على جسدي؛ الذي يطفو كبقع الزيت المحروق على سطح الماء؟ ما هذا الانتفاخ في أسفل ظهري؟ أهي لعنة حلّت علي ؛ جزاء الخطايا التي بدأت أرتكبها فور وصولي إلى هذه المدينة؟ أم أنني أتخيل؟ فركت عينيّ بيدي، ونظرت مجددًا، ولكن لم يختلف شئ؛ فما زالت بقع الشعر الرمادي تطفو على جسدي وما زال الانتفاخ في مكانه .

الدهشة والمصيبة التي أنا فيها أقعدتني على أرض الحمام، أفكار كثيرة تغزو جمجمتي، وكل الذين أعرفهم يمرون في رأسي؛ مثل شريط سينمائي: أمي تودعني، إخوتي يلعبون، ليلى ترمقني بنظرات ساحرة، شاباتٍ جميلاتٍ يرقصن في ملهىً ليليٍ اعتدت زيارته في بيروت، بطيختان تحملهما الآنسة أديبة في حمالة صدر حمراء مرقطة بنقاط بيضاء.

أدرت الصنبور، دون وعي، فانساب، وانقطع الشريط السينمائي؛ الذي كان يمر في رأسي. جمعت ما تبقّى لدي من قوة، وقرّرتُ أن أنهي المسألة، وأن أتخلّص من ذلك الشعر، فتناولت معجون الحلاقة من على الرف المثبت في زاوية الحمّام، وفتحت الغطاء، وضغطت بإبهامي على بطن ماسورة المعجون، فانساب

المعجون الذي وزعته على غابات الشعر المنتشر على جسدي؛ كغابات الأرز في بيروت، ودلكت هذه الغابات بواسطة فرشاة الحلاقة. تناولت آلة الحلاقة وبدأت أجز الشعر الرمادي الكثيف، وما هي إلا دقائق حتى انتهيت.

في اليوم التالي؛ استيقظت باكرًا، فأسرعت إلى الحمام؛ لكي أتأكد مما حصل معي ليلة البارحة، هل هو كابوس مرعب أم أنها حقيقة مرة. وحين نزعت ثيابي أمام المرآة، التي شاركتني رؤية مصيبتي، صعقت بما رأيت؛ فغابات الشعر الرمادي انتشرت في جميع أنحاء جسمي، وصار من الصعب إخفاؤها. أما الانتفاخ، في مؤخرتي، فأصبح أكثر طولا وليونة.

أدرت الصنبور، فنزل الماء كالمطر من القطعة المعدنية المثبتة في أعلى الحمام. أنهيتُ حمّامي، وخرجت متجهًا نحو شماعة الثياب، اخترت لباسًا يخفي مصيبتي. وقبل أن أرتدي نعليّ انتبهتُ إلى أن قدميّ قد أصبحتا قاسيتين، وأصغرَ من حجمهما الطبيعي، ارتديت نعليّ، ويمّمت وجهي نحو الجامعة.

لم أنوِ الدوام هذا اليوم، وإنما أردت الذهاب الى مكتب شؤون الطلبة؛ لأوقف دراستي لهذه السنة. وفور وصولي إلى

المكتب؛ طلبت من الموظفة المسؤولة، دون أن ألقي التحية عليها، إيقاف تسجيلي لهذه السنة، لكنها لم تفهم طلبي ، وكأني أحدثها بالسنسكريتية، فلاحظت حينها، أن صوتي أصبح أجشّا؛ فطلبت مني أن أعيد ما قلته لها مرة أخرى، وفعلا أعدت طلبي للمرة الثانية، لكنها لم تفهم؛ لأن صوتي لم يصبح أجشا فقط؛ بل أصبح غير واضح الملامح، أهو صوت إنسان أم صوت شئ آخر؟

أومأتُ للموظفة أن تناولني قلم وورقة، فسجلت طلبي وكل المعلومات التي تلزمها لمساعدتي، وناولتها الورقة. وبعد أن قرأتها، أجابتني : لك ما تريد .انصرفت سريعا من مكتب الشؤون،ومن الحرم الجامعي بأكمله، فيممت وجهي نحو غرفتي. وفور وصولي الحمام نزعت ثيابي أمام ذات المرآة، ففوجئت بالشعر الرمادي ما زال ينمو بشكل سريع، والانتفاخ ما زال ينمو بشكل سريع. ولكن الجديد أن رأسي، على ما يبدو، أصبح يأخذ شكلًا طوليًا وأن أذناي بدأتا تكبران، فخرجت من الحمام دون أن أبلل أي جزء من جسمي .

يعود الشريط السينمائي إلى ذاكرتي مجددا: والدتي.. إخوتي.. ليلى.. شابات بيروت الجميلات.. حمالة صدر حمراء مرقطة بالأبيض، تحاول الآنسة أديبة حشو بطيختين داخلها.

ثلاثة أيام مرت، وما زال كل شيء ينمو: الشعر الرمادي الذي يغطي كل أنحاء جسدي، حتى رأسي الذي أصبح متطاولا أكثر، والانتفاخ تحوّل إلى ما يشبه الذيل، بالإضافة إلى ذلك؛ أنني لم أعد أستطيع السير على قدمي، فصرت أحبو؛ على كلتا قدمي، ويديّ اللتين أصبحتا بنفس الطول تقريبا، بالإضافة إلى أنهما أصبحتا أكثر تصلباً وصغر حجمهما.

عاود الشريط السينمائي غزو جمجمتي ثانية، ولكن هذه المرة كان الجميع يصرخ بي: يا حمار، أمي، إخوتي، ليلى، الآنسة أديبة، حتى شابات لبنان. والغريب أنني، قبل أن أصبح على هيئة حمار، كنت بين الذين يصرخون بي: يا حمار .

وخزة في مؤخرتي قطعت هذا الشريط السينمائي، فتحتُ عينّي، متثاقلاً، فإذا بممرضة تسأل والدتي: كيف حصلت معه هذه الحادثة ؟ فتجيبها والدتي: رفسه الحمار على رأسه، عندما كان يقدم له وجبة الغداء . هذا آخر ما سمعته قبل أن أغط في نوم عميق .

من حكايات أصحاب البيجامات المقلمة

في أحد نهارات السجن الطويلة من أيام حزيران، كان يدور في ساحة التنفس. هكذا يدعوها أصحاب البيجامات المقلمة، بالأبيض والأسود، وكأن الهواء انقرض من جميع أرجاء السجن سوى هذه الساحة، التي كتب على أحد جدرانها: السجن إصلاح وتهذيب، وعلى الجدار الآخر: أخي النزيل، السجن بيتك الثاني؛ فحافظ على نظافته. وكنت أود أن أصرخ بكاتب هذه العبارات: أخرجونا وبارك الله لكم في بيتكم.

صديقنا هذا ما زال يدور في ساحة التنفس؛ مرتديا شروالا أسود وقميصاً بنفس اللون، ويطوي تحت قدميه حذاءً أسطورياً كحذاء الطمبوري ؛ الذي يُسمع له صوت غير أصوات كل أحذية أصحاب البيجامات المقلمة، مما يعطيه رهبة إضافية.

هو شاب في طفولة عقده الثالث، رفيع الجسم كالقصب، قصير القامة مثل "أليس في بلاد العجائب "بعد تناولها الفطر السحري. ويقال إن جسمه هذا سبب موهبته، التي يحسده عليها الكثير من "أبناء الكار"..

نصحني الكثير من الزملاء المجرمين أن أتعرف عليه؛ فالنوادر التي تحكى عنه أغرب من نوادر جحا، مع العلم أن شكل جسمه الصغير يقف حائلاً دون تصديق ما يروى عنه، لكن مشيته المفرطة في الرجولة ولباسه الاستثنائي؛ كالضبع بين كومة من حمير الوحش، يضفي إليه شيئًا من الرهبة، بالإضافة إلى بعض الكلمات النابية التي كان يطلقها كالرصاص العشوائي دون أن يوجهها إلى أحد، ودون أن تصيب أحدًا بدورها. كنت مترددًا قليلا في التعرف عليه في بادئ الأمر، لكنني أذعنتُ بعد إصرار "قاسم ملاقط"؛ وهو زميل من مهجع اللصوص، كانوا يطلقون عليه هذا اللقب؛ لأنه اشتهر بسرقة الثياب المغسولة عن الحبال، دون أن يترك لأصحابها الحبال أو الملاقط.

هنا في السجن، الكثير من الألقاب الغريبة مثل: أبو عبدو الفنّوص، قاسم ملاقط،صبحي الجاجة. وقد أطلق عليه هذا اللقب بعد أن دخل السجن عدة مرات على أثر سرقته للدجاج. وهناك أيضا حسن الملقب بكوكو كناية عن الكوكايين الذي اشتهر بتجارته خارج السجن وداخله. أما أشهرهم فهو أبو عبدو الفنّوص؛ الذي اعتاد أن يحكي للمساجين قصصه المثيرة لحد التفنيص (كما

يقال بالعامية). فلا شيء أكثر من القصص يبدد ملل المساجين في أيامهم الطويلة.

أبو عبدو الفنّوص، ما زال يدور في ساحة التنفس؛ كالثور المربوط على حجر طاحون . تقدمت نحوه وهو ما زال يدور، ويطلق بعض الشتائم، وكأنه محشو بها؛ فهي لا تنفد من جعبته، ألقيت التحية عليه، قائلاً : صباح الخير يا أبو عبدو، فرد: أهذه تحية يا أخي؟ قل السلام عليكم؛ فنحن في الحبس، ولسنا على شاطئ البحر برفقة الحسناوات!

عاودت إلقاء التحية عليه مرة أخرى :السلام عليكم، فرد: وعليكم السلام، أنت النزيل الغر، أليس كذلك؟ فقلت: نعم، ثم استطرد قائلًا: أنت هو، فشعرك القصير وإلقاؤك التحية يدل على ذلك،ثم سأل: ما اسمك؟ فأجبته: علي .

كنت أجيب عن أسئلته وكأني أجيب أسئلةمحقق،لكنه بعد ذلك يعاود ارتداء زي "الأبضاي"، ويقول: أهذا اسم يليق بالسجن؟ دعني أطلق عليك اسما يليق بك. ودون أن أقبل أو أرفض، وجدته يقول بصوته الحاد كطنين النحل : سأطلق عليك لقب "أبو صخر"؛ فهو اسم يليق بك.

وضع أبو عبدو يده على كتفي، وبدأنا ندور من جديد. وكأن حجر الطاحون أثقل كاهله؛ فاختاروني كثورٍ آخر لأساعده في مهمته المضنية. استأنف أبو عبدو كلامه لي، قائلا: اسمع يا صديقي أبو صخر، السجن حياة أخرى غير التي عرفتها خارجه، اسألني أنا؛ فقد قضيت ثلاثة أرباع عمري بين قضبانه، وأَلِف معصمي قيوده.

كنا ندور، وأبو عبدو يحدثني، إلا أن صوت قاسم ملاقط لا يفارق مخيلتي، وهو يقص على مسمعي حادثة رواها أبو عبدو الفنوص له، حيث قال: إنه وفي أحد أيام الصيف كانت لدى عائلة أبو عبدو حفلة زفاف، وكان العريس ابن عمته، ومن عادات أم العريس (أي عمة أبو عبدو) أن ترتدي ما استطاعت من حلي ذهبية؛ لتبهر بها أهل العروس، ولم تكن تظن أنها ستبهر ابن أخيها أبو عبدو. أما أبو عبدو فقد كان يراقب الأساور الذهبية النائمة كالملائكة على يد عمته، والزبد يسيل من فمه كالذئب الذي يراقب فريسته.

بدأ أبو عبدو يلحق بعمته، من زاوية إلى أخرى، انتظاراً لتحين الفرصة الملائمة لينقضّ عليها، و يخلصها من أساورها، وها

هي عمته تدخل غرفة العريس؛ وهي غرفة بعيدة عن مكان الاحتفال بالعرس.

كما جرت العادة، دخلت العمة الغرفة، ودخل الذئب أبو عبدو الفنوص وراءها. لكن أحداث الحكاية لم تسر كما سارت أحداث حكاية ليلى والذئب، فعندما انتبهت العمة لوجوده سألته عن السبب، لكنه لم يجبها؛ بل انقض عليها ليخلصها أساورها، إلا انه وجد مقاومة عنيفة لم تدهشه؛ فهي عمة أبو عبدو ذائع الصيت، وعندما أحس أن المجتمعين في ساحة العرس قد سمعوا صراخ عمته، كان عليه أن يقرر إما أن يهرب، خاوي اليدين، أو أن تزداد يداه يدان أخريان؛ فالأساور لا تخرج من يدي عمته المكتنزة.

سحب ساطوره من خلف ظهره وقطع يدي عمته التي خرت مغشيا عليها لهول ما أصابها، أما هو فقد خبأ اليدين تحت قميصه الفضفاض، وهرب وما هي إلا دقائق من هربه حتى وصلت الحشود لترى ذلك المنظر الرهيب، أما أبو عبدو فبقي يجري يخبئ ذراعي عمته في حضنه، وما زالت أصابعها تتحرك، وبعد عدة ساعات وجده الناس مغمى عليه بجانب الطريق السريع؛ فسلموه لعناصر الشرطة، وحبس على أثر هذه القضية خمس سنوات.

لم تكن الحادثة الأولى التي حبس على أثرها أبو عبدو الفنّوص . فتلك كانت قصة غريبة، كما روى قاسم ملاقط.

كان أبو عبدو الفنّوص في الحادية عشرة من عمره أقصر قامة من قامته الحالية، ونحيف كخط قلم رصاص، ويقال "إنه تشاجر وقتها مع أبناء جيرانه الأحد عشر؛ لأنهم اصطادوا له طيراً من الحمام كان يحبه كثيراً، وعندما طالبهم بإعادة الطير رفضوا إرجاعه، بل تجمعوا حوله وأوسعوه ضرباً، بقي طريح الفراش بعد هذه المشاجرة لعدة شهور، لكن طيره ما زال يعشش في صدره وحقده على أبناء جيرانه يعشعش في رأسه. فلم ير طريقًا لراحته إلا بالتخلص من جميع أبناء جيرانه.

في إحدى الليالي الحالكة قام الفنّوص يحمل ساطوره، الذي رافقه في كل حكاياته، وقفز فوق سور بيت الجيران الذين كانوا يغُطّون في نوم عميق، فاستل ساطوره وقتل جميع أفراد العائلة، بما فيهم الأبوين، ثم وضع كل واحد منهم في قالب من الخشب الذي يستعمل في بناء الأعمدة، وصب عليهم خليط الاسمنت والرمل.

لولا أن قاسم ملاقط حكى لي هذه القصة على لسان أبو عبدو لما صدقته، لكنه أقنعني أكثر، عندما قال: لاحظ الجيران، في

اليوم التالي، وجود ثلاثة عشر عاموداً إسمنتياً فوق بيت الأحد عشر أخ، لم يسبق لهم أن رأوها من قبل، ولم يعد الجيران يرون الأخوة الأحد عشر أو أبويهم، أيعقل أن يكونوا قد تبخروا . وأضاف ملاقط، قائلا: لم يُسجن سوى عدة شهور كعقاب له؛ بسبب صغر سنه، بالإضافة إلى عدم وجود ادّعاء شخصي، ومن سيدعي عليه؟ فلم يبق من العائلة سوى أصنام إسمنتية . سألته عندها ألم تحطم الشرطة الأعمدة لتجد الجثث؟ فرد قاسم ملاقط: لا أعرف؛ فهذا كل ما حكاه لنا أبو عبدو الفنّوص وقتها .

كل هذه الذكريات كانت تدور في رأسي وما زلنا، أنا وصديقي أبو عبدو، ندور وكأن الطحن لا ينضب أبدا. أما عن حكاية جريمته التي يقضي عقوبتها الآن، فقد روى لي صبحي الجاجة؛ وهو أحد عيون الحكومة داخل السجن، وما أكثر العيون التي يوظفها رئيس السجن ليعرف كل تحركات المساجين بمن فيهم الشرطة الذين يعتبرون جزءًا هاماً من النزلاء.

قال صبحي: في إحدى الأمسيات التي كان يقوم فيها بأعمال السُّخرة؛ أي أعمال التنظيف دون أجر، أو مقابل أجر زهيد، سمع أحد شرطة القلم العدلي؛ وهم الشرطة المطلعة على جرائم

السجناء، يقول: أبو عبدو الفنّوص ليس مكتمل الرجولة؛ ففي أحد الأيام التي كان أبو عبدو الفنّوص يسير به في سوق الأحد، وهو سوق تباع به الطيور ظهرت له عصبة مؤلفة من ثلاثة أشخاص، وخلصوا من بين يديه قفصاً ملئاً بالطيور، وعندها حاول أبو عبدو استرجاع القفص من بين أيديهم، قام أحدهم بإشهار مسدسه باتجاه أبو عبدو، وأطلق النار فسقط أبو عبدو والدم ينهمر منه، وبعد نقله الى المشفى قام الأطباء بقطع رجولته. وبعد مضي فترة على شفاء أبو عبدو ذهب إلى نفس السوق الذي شهد مأساته.. كان صبحي يحكي لي هذه الحادثة وهو يمد رأسه تارة، ويغص بكلامه تارة أخرى؛ ليزيد من رعب تلك القصة، فاستطرد: وعند وصول أبو عبدو الى ذلك الزقاق، الذي اعتادت تلك العصبة أن ترصف أقفاص طيورها به لبيعها، قام بإخراج مسدس، كان موضوعا على خصره، وأطلق الرصاص عليهم فأرداهم جثثًا هامدة، ثم قام بإخراج ساطوره أمام الناس المتجمهرة وقطع رجولة الشبان الثلاثة.

كنت أستذكر تلك الحكايات، وما زلت أنا وصديقي أبو عبدو ندور في ساحة التنفس، وهو يقول : اسمع يا أخي، لا تصدق كل ما يحكى في السجن؛ ففيه قصص لا تمت للواقع بصلة، وقبل

أن يكمل كلامه قطعت صفارة الشرطي الكلام؛ إيذانا ببدء إعلان أسماء المُخلى سبيلهم، والذين كان اسم نزار الحسن (أي أبو عبدو الفنّوص) أحدهم.

بعد مرور عدة أيام من خروج أبو عبدو، عرفت من عواد بائع الخرز، والذي كان محكوماً عليه بحكم المؤبد، وقد قضى من فترة حكمه سبع عشرة سنة في هذا السجن، أن أبو عبدو الفنّوص لم يسجن في حياته سوى هذه المرة، التي قضى فيها مدة لا تتجاوز الستة أشهر، على أثر مشاجرة عادية وقد أفرج عنه قبل نهاية مدته الأصلية كمكافأة لحسن سلوكه .

كيف وجد كل هؤلاء الرجال نساءهم

ها قد أصبحت جاهزاً، أجل، أصبحت جاهزاً للزواج، فمرتبي الشهري أصبح 6800 ل. س، وأنا غير مدخن، ولا آكل كثيراً ولا أشتري الجرائد؛ فأنا لا أحب الأبراج ولا الكلمات المتقاطعة، التي تهاجم رأسي بمربعاتها الساذجة، ولا أضطر لدفع الكثير من النقود للحلاقين لتقصير شعري؛ فشعري قصير بطبيعته. وبعد دفع أجرة الشقة التي أسكنها، والقسط الشهري لعلاج أسناني الذي بدأت أدفعه، بعد أن بدأ جيش من السوس بمهاجمتها، وبعد دفع الفواتير المختلفة أستطيع أن أوفر 3225 ل. س، وهو مبلغ لا بأسَ به، ولم يبق سوى أن أجد العروس، وهذا أصعب شيء بالنسبة لي، وكنت أتساءل دائماً: كيف وجد كل هؤلاء الرجال نساءهم؟

وكانت تلمع بعيني صورة أمي كالبرق، وهي تقول: شد الهمة؛ وسأزوجك أجمل النساء. ومنذ ذلك اليوم وأنا أشد الهمة، ولكن أمي انتقلت الى جوار ربها ولم تخبرني من هي أجمل النساء التي كانت ستزوجني إياها.

كانت الأفكار تضرب رأسي (مثل الكنبريصات) التي تشق أسفلت الشوارع، فوضعت رأسي على مكتبي؛ لعلي أريحه قليلا، ولكن صوت زميلي الحاد؛ الذي يشبه صرير الأبواب الصدئة، والذي يجلس وراء الطاولة المجاورة لطاولتي في نفس الغرفة ذات الطلاء الرمادي، المشبع بالرطوبة التي كانت تهطل بعض أجزائه كرذاذ الثلج فوق الملفات المتناثرة، وفوق رؤوس المراجعين؛ قطع سلسلة أفكاري، وهو يقول: ما بك يا صديقي علي، وكأن مشاكل الحياة كلها سقطت على رأسك دفعة واحدة؟ فأجبته: آه يا صديقي سامر..

بدأتُ اروي لسامر مشكلتي، وكأن لساني كان معقودا وسامر من فك عقدته: أنت تعرف يا صديقي أنني بلغت الثلاثين من عمري، وأريد أن أكمل نصف ديني، ففاجأني بفرحته الغير مبررة، وهو يضحك، ويقول: ألف مبروك، من هي سعيدة الحظ؟ وقبل أن أجيبه، تابع: وأخيرا قررت أن تدخل ذلك السجن بقدميك! أنا أنصحك يا علي أن تقطع رأس القط من ليلة العرس، ولكنه صمت؛ عندما صرخت بوجهه: أي قط وأي دب يا سامر، دعني أجد بنت الحلال أولا، فأنت تعرف أن المرأة الوحيدة التي

كانت تربطني بها علاقة هي والدتي، ولا أعرف كيف أجد زوجة صالحة لي.

عَلَت الدهشة ملامح وجه سامر، ولاذ بالصمت لبضع ثوانٍ، إلا أنه عاود النطق بعد أن أخرسته نهائيا، ولكن هذه المرة أنا من كانت تعلو وجهه ملامح الدهشة ؛حيث كان يقول لي: بسيطة يا أخي علي، ابحث في حافلات النقل الداخلي، فأنا التقيت زوجتي في إحدى الحافلات، كل موظفات هذا البلد يركبن حافلات النقل الداخلي للذهاب الى مكان عملهن، وبعد التفكير بحديث سامر حزمت أمري وقررت أن أقضي يوم غد، بأكمله، وأنا أبحث عن زوجة المستقبل في حافلات النقل الداخلي.

أخبرت سامر بما عزمت على فعله، وأكمل هو معروفه معي؛ حيث زودني ببعض النصائح واخبرني أنه سيغطي غيابي عن الدّوام غدا.

انتهى الدّوام وساعات ما تبقى من النهار، مرت ثقيلة جدا وساعات الليل لم تختلف كثيرا عنها، إلا أن النعاس تمكن مني، ولم أستيقظ إلا على صوت المنبه. ولكني، على غير عادتي، نهضت

بسرعة، واتجهت إلى الحمام. وعلى غير عادتي، أيضًا، أخذت حماماً سريعاً.

بعد أن انتهيت اتجهتُ، مسرعاً، إلى الخزانة ذات اللون البني، فتحت أحد البابين التوأمين، وها هو قميصي الجديد مشنوقًا على إحدى الشماعات فارتديته، وتناولت بنطالي الأسود، ثم انتعلت حذائي بعد أن لمّعته، ورششت الكثير من العطر على جسدي،حتى بدأت مساماتي تخزني. غادرت شقتي، ويممت وجهي صوب موقف الحافلات القريب من منزلي. وكل ما كان يشغل بالي أن أجد فتاة أحلامي، وما هي إلا بضع دقائق حتى وصلتُ الموقف وها هي الحافلات، ذات اللون الأخضر، تصطف وراء بعضها البعض؛ كالأغنام أثناء حلبها، وها هن الموظفات التي يبدو أنهن استيقظن باكرا لكي يتسنى لهن وضع كل تلك المساحيق على وجوههن .

لم يكن يهمني وجهة تلك الحافلات، ولكن كل ما كان يهمني هو أن أجلس بجانب إحدى الموظفات؛ ليتسنى لي أن أجري عليها تلك الاختبارات التي زودني بها صديقي سامر. وبعد صعود بعضهن ها هي الفرصة مواتية لكي أصعد .

صعدت، ثم توقفت بضع ثوانٍ لكي أقدم لتلك الآلة الجشعة بطاقة الصعود، فتقضمها بشراهة، نظرت داخل الحافلة، وما زالت الكثير من المقاعد فارغة، وها هي إحدى الموظفات المتأنقات كعادة الموظفات في بلدي، اتجهت نحو المقعد المحاذي لمقعدها وببرودة أعصاب، لم أعهدها عن نفسي، سألتها: هل المقعد محجوز يا آنستي؟ فأجابتني، بلطف: لا، تفضل.

جلستُ، وما هي إلا دقائق حتى غصّت الحافلة بالركاب وبدأت تتحرك، أما أنا، فكانت تجول في رأسي اختبارات سامر، وبدأت أسقطها عليها؛ كما يفعل العلماء مع فئران المخابر .

ابتسمتُ في وجهها فبادلتني بالابتسامة، وكنت كلما انحرفت الحافلة أميل بجسدي نحوها، فتنظر إليّ تلك النظرة المتجهمة دون أن تنبس ببنت شفة، ولكني تجرأت أكثر من ذلك، ووضعت قدمي فوق قدمها إلا أنها لم ترمقني بتلك النظرة ورحت أسحق قدمها تحت قدمي وكأني أطفئ سيجار قد شارفت على لقط أنفاسها الأخيرة، إلا أنها لم تبدِ أي امتعاض. وكنت أقول لنفسي: لعلها تشتمني، وتنجح في أول اختبار لها. ولكن صمتها أغضبني، فمددت يدي نحو ساقها، وقمت بقرصها بشدة إلا أنها لم تبدِ أي

احتجاج، أما عن نفسي فلم أعطها العلامات الكافية التي تخولها اجتياز هذا الاختبار .

مضت أكثر من ربع ساعة على انطلاقنا، وها هي الحافلة تتوقف، وها هي جارتي في المقعد تهم بالوقوف، فأقف وأتنحى قليلا ليتسنى لها الخروج، الدهشة كانت سمة وجهي الوحيدة؛ حين رأيتها تتقدم نحو باب الحافلة وهي تترنح برجلها الاصطناعية. جلست على الكرسي، ومرارة غبائي تغزو مخيلتي، وما هي إلا دقائق حتى استجمعتُ قواي وقررت أن أجرب حظي في حافلة أخرى..

ها هي الحافلة (الأخرى) تقف، ثانية. نزلت من الحافلة، مسرعًا؛ لأن وقت الذهاب إلى الدوام شارف على الانتهاء، ويجب على الموظفات أن يصلن إلى دوامهنّ الساعة الثامنة صباحاً؛ وإلا خصم من راتبهنّ الشهري، وكان عليّ أن أحاول الصعود إلى إحدى الحافلات؛ لعلي أجد فأرة تجارب أخرى..

بدأت الشمس برفع حرارة أشعتها، والعطر الذي صببته على جسمي بدأ يخزني أكثر فأكثر، ويختلط بالعرق؛ فيترجم الخليط إلى رائحة كريهة تنبثق من جسمي، وها هي حافلة تطل من أول الشارع بوجهها المسطح، وتهم بالوقوف، وحين فتح الباب نزل

فوج من الركاب، وصعدت،وها أنا أقدم بطاقة الصعود لشقيقة تلك الآلة الشرهة؛ فتقضمها بشراهة لا متناهية. رمقت الحافلة بنفس تلك النظرة التي رمقت فيها الحافلة الأولى، ولحسن الحظ؛ ها هي إحدى الفتيات تجلس وحدها.. وبنفس لذاعة الدم التي لم أعهدها عن نفسي، سألتها : عن ذاك السؤال هل المكان محجوز، فتجيب بنفس إجابة تلك الموظفة، صاحبة الرجل الخشبية: لا، تفضل. حتى إنني خلت نفسي صعدت تلك الحافلة الأولى، وأنني في مشهد تراجيدي يُعاد ببطء..

جلست، وقبل أن أبدأ اختباراتي لها جاءني صوتها المصقول هل أنت موظف؟ أجدني أجيبها: أجل موظف، وتعاود سؤالي عطرك ذو رائحة طيبة، هل هو من دول الخليج؟ فأجبتها ، وكأن القط أكل لساني، بهز رأسي: نعم. وتعاود بسؤال ثالث: هل أنت متزوج؟ سؤالها أحيا برأسي الكثير من الأسئلة، وأخطرها هو: هل أنا من أصبح فأر التجارب؟ إلا أنني تذكرت سامر، وهو يقول: ابتعد عن تلك الفتاة التي تبادر؛ فهي سوف تبقى تأخذ دور الرجل حتى بعد زواجك منها.

انتظرتَ وقوفَ الحافلةِ في أولِ موقفٍ؛ لكي أهربَ من مختبرها إلى أي جحر، وفعلا في أول موقف وقفت به تلك الحافلة، نهضت من المقعد واتجهت نحو باب الحافلة، وقبل أن أنزل نظرت نحوها، فوجدتها تنظر نحوي وكأنها تنظر إلى دواليب اليانصيب، وأرقامها تبتعد عن أرقام ورقتها الخاسرة..

هذا آخر ما رأيته في هذه الحافلة، قبل أن أنزلَ لأجرب حظي في إحدى الحافلات، إلا أن الساعة قضت على أحلامي هذا النهار؛ فقد أصبحت الثامنة صباحا ،ولم يتبق أي موظفة لم تصل إلى عملها. قررت أن أذهب إلى وظيفتي، وأعاود المحاولة غدا. وعليّ أن أصل إلى وظيفتي؛ فسامر لن يستطيع أن يغطي غيابي عن الدوام أكثر من ذلك الوقت.

أوفقتُ سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى مؤسسة البريد؛ التي أعمل فيها. وكل ما كان يشغل بالي أنني لن استطيع توفير سوى 3000 ليرة هذا الشهر، لأنني سأدفع 225 ليرة كبدل أجر لسيارات الأجرة ذات اللون الأصفر الممل. نظرت الى الساعة المتكئة على "تابلو السيارة" ؛ فأدركت أنني تأخرت كثيرًا.

صرخت في وجه السائق: أسرع يا أخي، فأنت لا تمشي على بيض، فيقول: ما بك مستعجل، يا أخي الدنيا خلقت في ستة أيام.

وأرى قدمه تثقل على كاهل دعسة الوقود، وما هي إلا دقائق حتى أطلت مؤسسة البريد ببنائها الشاهق، ترجلت من سيارة الأجرة ويممت وجهي نحو باب مؤسسة البريد الخلفي، لأستطيع الدخول دون أن يراني أحد من مراقبي الدوام، فيخصم أجر ما تأخّرت من راتبي.

صعدتُ الدرجَ مسرعًا نحو مكتبي، وها هو صديقي سامر يرحب بي بحفاوة على غير عادته، ويقول: "طمّني"، ما الذي حدث معك؟ فأجيبه، وأنا منكس الرأس: "مثل ما رحت مثل ما أتيت" فيربت على كتفي، ويقول وهو شبه متأكد: ستجدها؛ فالنساء أكثر من "بزر دوار الشمس في المحامص"، ثم سمعته يسألني: من أي المواقف استقللت الحافلات التي بحثت فيهن؟ فأخبرته عن أسماء تلك المواقف دون تردد، فقال: سامحك الله يا صديقي، علي. لماذا لم تستقل إحدى الحافلات من ذلك الموقف، بجانب المؤسسة العقارية؟ وتابع كلامه: إن أجمل الموظفات يركبن حافلات هذا

الموقف. يجب عليك أن تذهب في نهاية الدوام إليه وتستقل إحدى حافلاته.

أثّر فيّ كلام سامر، كعادته. مضت الست ساعات ببطء، وعندما شارف الدوام على الموت هذا النهار. خرجنا، أنا وسامر، كعادة الموظفين في بلدي، قبل موت الدوام بربع ساعة، ودّعت سامر وهو يقول: اذهب إلى ذلك الموقف، وستجد زوجة المستقبل. وبعد أن افترقنا أومأت لسيارة أجرة بيدي وبالسرعة المعروفة عن سيارات الأجرة توقفت. صعدت السيارة، وأخبرت السائق أن يوصلني إلى ذلك الموقف بجانب المؤسسة العقارية.

لم ينبس السائق ببنت شفة وأنا كذلك فعلت. بدأت الدقائق مستعجلة، وأنا كنت مستعجلاً أكثر؛ فالدوام انتهى والموظفات لن يتأخرن عن بيوتهن من أجل سواد عيوني..

ها هو الموقف يبدو خاوياً؛ فأغلب الحافلات انطلقت في رحلتها.. توقفت السيارة، فنزلت بسرعة وانطلقت نحو الحافلة اليتيمة في الموقف،وما هي إلا خطوات، حتى داهمني صوت زعيق منبه سيارة الأجرة، فأوقفني.نظرت نحو السائق، فوجدته وقد أخرج رأسه من النافذة الزجاجية، فتذكرت وقتها أن لهفتي إلى تلك

الحافلة أنستني أن أدفع لهذا السائق المسكين أجرته؛ عدتُ خطاي، وناولته أربع قطع معدنية من فئة العشر ليرات ومضيت مسرعاً نحو الحافلة.

وأثناء تقدمي نحو هذه الحافلة؛ لفت انتباهي وجود إحدى الفتيات أمام بابها، ولاحظت أنها لم تكن تنظر نحو الحافلة، بل كانت تنظر باتجاهي، وعندما رأتني أنظر نحوها غيرت اتجاهها وصعدت إلى الحافلة.. هممت الخطى، وعند صعودي إلى الحافلة ناولت تلك الآلة الجشعة وجبتها فقضمتها بشراهة.. نظرت نحو ركاب الحافلة، فرأيت أحد الشبان يسأل تلك الفتاة: هل المقعد محجوز؟ فتجيب: نعم، فيمضي يجر ذيول الهزيمة باحثاً عن مقعد فارغ آخر، غصت الحافلة بالركاب ولم يبقَ أي مقعد فارغ سوى المقعد المجاور لمقعد تلك الفتاة، فقلت في نفسي: سأجرب حظي فلن أخسر شيئاً.

تقدمت نحوها، وكنت أظن أنها ستقول لي "إن المقعد محجوز"، وعند سؤالها خيبت توقعاتي، وقالت: تفضل. فجلست.

وفور أن بدأت الحافلة تتحرك؛ بدأت اختبار هذه الفتاة. وكلما كانت الحافلة تميل كنت أميل بجسمي نحوها إلا أن صوتها

الرهيف عانق سمعي، وهي تقول لي: لو سمحت، بدون هذه الحركات، فأنا آنسة محترمة، فقلت: اعذريني يا آنسة، لم أكن أقصد.

أخلاق هذه الآنسة أعجبتني كثيراً بالإضافة إلى جمالها، طبعا، وأظن أنني منحتها العلامات الكافية لاجتياز هذه الاختبارات. فوجدت نفسي أقص عليها معاناتي وأطلب يدها للزواج، إلا أن عدم استغرابها فاجأني كثيرا ، وكل ما فَعَلَته هو إخراج ورقة من حقيبتها كتب عليها، مسبقا، اسمها وعنوان بيتها، وقالت: بإمكانك أن تزورنا يوم الخميس القادم، هذا آخر ما سمعته من زوجتي وفاء قبل أن تصبح على ذمتي، ولكنها ليست آخر خدعة يخدعني إياها زميلي في الوظيفة وعديلي سامر .

لولا تربيتنا المنزلية

نائبة.. أجل، نائبة كبرى: أن تكون عاقلا في مستشفى كبير للمجانين، يدعى المجتمع. والمصيبة الأكبر أن تقنع المجانين بأنك عاقل، أو أن تقنع قليلي الأخلاق بأنك على خلق عظيم.

وماذا عساي أفعل؟ أنا ابن عائلة اتصفت دوما بأخلاقها الحميدة وصبرها الذي سبق صبر سيدنا أيوب. آهٍ، لولا تربيتي المنزلية، لكنت رجلًا غير الذي أنا عليه اليوم .

قبل اثني عشر عامًا كنت طالباً مجتهداً في المدرسة الثانوية، آهٍ لولا تربيتي المدرسية، لكنت حطمت تلك الأسنان العاجية التي لم أكن أعرف سبب ظهورها كلما ذهبت الى مدرستي، فأنا طالب مجتهد.

عندما كنت أرفع يدي لأجيب بعض الأسئلة التي تسألها الآنسة، وكنت أسمع بعض التلاميذ يتهامسون فيما بينهم:قائلين: "ها سيجيب النص نصيص". في بادئ الأمر لم أكن أعرف من المقصود، إلا أنني اكتشفت ذلك عندما رفعت يدي لأجيب عن

أحد الأسئلة، التي لم يكن يعرف إجابتها أحد غيري، اكتشفت، عندها، أنني المقصود ب"النص نصيص. ولولا تربيتي المنزلية، لكنت قلبت المقاعد الدراسية على رؤوس من أطلق علي هذا اللقب، إلا أن تربيتي المدرسية تمنعني من ذلك.

حتى في حصص الرياضة المدرسية، لم يكن يختارني أحد في فريقه، على الرغم من أن حجمي الصغير كان يساعدني على إحراز الكثير من الأهداف، إلا أنهم لا يختاروني، بل يقولون: اذهب يا "نص نصيص" والعب بعيدًا.

كم كنت أتمنى، عندها، أن أفجر لهم تلك الكرة، إلا أن تربيتي المنزلية تمنعني من ذلك.

كبرتُ، وما زالت تربيتي المنزلية ملتصقة بي؛ كأنها وحمة. بعدها بعام أصبحت طالبا جامعيا، أي أصبحت أعيش في مجتمع أكثر أخلاقًا، هذا ما كنت أعتقد في بادئ الأمر. إلا أنني اكتشفت أن وحمة التربية المنزلية ملتصقة في كل الناس أيضا. وذلك بعد أن هاجمني شاب مفتول العضلات في الهو الجامعي؛ بحجة أنني تعرضت لصديقته. كان الشاب، وقتها، هائجا كالثور، وكلما كان يضربني وأنا الملقى على الأرض والدماء المختلطة بالدموع والمخاط

تهمر من أنفي وفمي، أتذكر أنني كنت أصرخ: تربيتي المنزلية تمنعني أن أرد عليك. هذا قبل أن فقد الوعي طبعا.

في اليوم التالي، وعندما استعدت وعيي، على أحد الأسرة في المستشفى الوطني، تذكرت أن صديقته هي من طلب مني أن اشرح لها إحدى المحاضرات. ورغم أن تربيتي المنزلية تمنعني من أن أكلم أي فتاة، إلا أن تربيتي المنزلية، هي ذاتها، السبب لأن أقدم لها المساعدة، ولو على حساب نفسي.. آهٍ، ما أبشع أن تكون عاقلًا في مستشفى للمجانين.

أمضيت شهرًا كاملًا؛ وأنا ملفوف بالجبس الطبي، وأنا أقتات على الشوربة؛ بعد أن كسر المفتول العضلات ذاك بعضًا من أسناني. كنت سأخبر الشرطة بما حدث معي، وأرمي ذلك المفتول العضلات في الحبس، إلا أن تربيتي المنزلية تمنعني من رمي أحد زملائي في الحبس وإضاعة مستقبله.

بعد شهرين، تقريبا، شفيتُ "تماما"، واستأنفت دراستي الجامعية. جميع الطلبة كانوا ينظرون إليّ وأنا أسير في الهو الجامعي ويتهامسون، فيما بينهم. وعندما كنت أمر بأحد وألقي عليه التحية يشيح بنظره جانبا، وبعضهم يقول لبعضهم الآخر: له

عين يسلم الـ "النص نصيص" هذا. ولولا تربيتي المنزلية؛ لكنت علّمتهم من هو "النص نصيص"!!

وقتها، قررت أنني لن القي التحية على أحد، إلا أنني لم أستطع تنفيذ قراري؛ فكلما كنت أمر بأحد زملائي ألقي التحية عليه؛ فتربيتي المنزلية لا تسمح لي بأن أعامل زملائي بهذا الجفاء.

مرت ثلاث سنوات من حياتي الجامعية، وأنا أجاهد لكي أنسجم مع زملائي. وفي بداية السنة الأخيرة طلبت إحدى زميلاتي المستجدات مساعدتي، وتحت ضغط التربية المنزلية قبلت مساعدتها، لكن الأمور لم تتوقف عند مساعدتها بل تطورت إلى أكثر من ذلك فكنت ألاحظ أنها تحاول التقرب مني بشتى الوسائل، إلا أن تربيتي المنزلية تمنعني من التقرب منها. آه، لولا تربيتي المنزلية لكانت اليوم زوجتي.

هذه الوحمة بقيت ملتصقة بي، حتى بعد أن أنهيت دراستي الجامعية وأصبحت موظفا في إحدى مؤسسات الدولة. كل موظفي الدائرة؛ من ذكور وإناث يقدم لهم "أبو منهل" آذن الدائرة المشروبات. أما أنا، فلأن تربيتي المنزلية تمنعني من أن أرفض طلبات زملائي، كنت أقدم لهم ما يطلبون دون كلل أو ملل.

الأفظع من ذلك، أن كل زملائي وزميلاتي، وحتى مدير الدائرة بدؤوا يطلبون مني أن أقدم لهم مختلف المشروبات. حتى أبو منهل، الذي لم يعد يقدم الطلبات لأحد، أصبح يطلب مني أن أصنع له الشاي مع الموظفين. ومنذ ذلك الوقت، وإلى اليوم، وأنا أقدم لجميع الموظفين في الدائرة مختلف أنواع المشروبات، بالإضافة إلى عملي كموظف أرشيف. آهٍ، لولا تربيتي المنزلية لكنت رجلًا، غير الذي أنا عليه اليوم.

مرت الأيام، وأنا على هذا الحال بالإضافة إلى أنني أصحبت أقوم بأعمال زملائي الذين تكدست الأضابير على مكاتبهم؛ بسبب كسلهم، فكلما كان احد الزملاء يطلب مني أن أساعده في عمله، كنت أقول له: تكرم عينك يا أخي، إذا أنا لم أساعدْك فمن عساه يفعل. آهٍ، لولا تربيتي المنزلية لكنت رميت هذه الأضابير المخنوقة من الغبار في وجوههم.

كثرت أعمالي، فلم يعد عندي الوقت الكافي لأصنع المشروبات لجميع الموظفين. عندها، قررتُ أن أنقل مكتبي إلى غرفة الأذن؛ لكي يتسنى لي القيام بجميع مهامي، فتربيتي المنزلية تمنعني من أن أقصر في مهامي.

مدينة القواقع

عقارب الساعة تزحف ببطء؛ كحلزون أثقلَ كاهِلَهُ بيت ما زال يحمله على ظهره منذ أن بدأ زحفه، دون أن يدرك قيمة تلك النعمة. فلم يسبق لي التعرف على حلزون يستأجر قوقعة، يلتجئ إليها في نهاية يوم من الزحف المضني. كم تمنيت أن أكون ذاك الحلزون، فقط ليكون لي بيت التجئ إليه في نهاية يومي. ولكني كنت أتراجع عن أمنياتي كلما عاد لذاكرتي شريط لمجموعة من الصبية يتكاثرون على حلزون ويعدمونه؛ رشًّا بالملح.

عقارب الساعة تصل إلى التاسعة مساءً؛ موعد انتخاب الأمسية القصصية، التي دعيتُ لحضورها، والتي لم يكن بإمكاني أن أرفض حضورها؛ لأن القاص كان ذا شأن كبير في دوائر الشرطة. ودّعتُ رفاقي واتجهت نحو البيت الذي كنت أستأجره بثلاث أرباع راتبي، هذا البيت مؤلف من غرفة يتيمة تجثم فوق أربع طبقات بنيت على عجل في إحدى اللحظات التي كانت البلدية تضع أصابعها أمام عينيها، بقصد أو دون قصد، فأي حجر بناء فوق الطابق الرابع يعد جريمة لا تغتفر.

مع كل الطوب الظاهر داخل الغرفة، ومع وجود ذلك الحمام، المغروس كسكين في خاصرة الغرفة كغرف المنفردات في السجون، إلا أنها تفي بالغرض، فهي تحمي من مطر الشتاء بعد أن أوزع بعض الأواني على أجزاء مختلفة منها، وتحميني من حرارة الصيف أيضا. ها هي الطوابق الكبريتية تشتعل من كل زواياها بلونٍ أصفر مقيت.

صعدت الدرج، مسرعًا، وفور وصولي إلى غرفتي؛ وجدت حقيبتي وبعض الكتيبات ترتجف أمام باب الغرفة. فأدركت أن صاحب البيت (صاحب الأربعة الطوابق الأربعة)، قرر طردي وذلك لأنني لم أقبل أن أزيد له أجرة الغرفة، لأن أجرة الغرفة ستستنزف راتبي بأكمله. فحملت حقيبتي، ولملمت كتبي وجررت ذيول الخيبة ومضيت.

عند نزولي الدرج؛ كان كل ما يشغلني هو أن أجد مكانًا يؤويني لليلتي تلك. الأفكار المتلاطمة في رأسي،أنستني أن أتجاوز الدرجة الثالثة ذات البلاطة المكسورة، فسقطت؛ وانتثرت من يدي الكتب والحقيبة السوداء. فشتمت صانعها، ونهضت ألملم أغراضي، وأعاود التفكير في حل مصيبتي. وأول الحلول الواصلة

إلى دماغي، كان أن أنام في أحد المساجد؛ فالمساجد بيوت الله، وكل المحتاجين في بلدي يلتجئون إليها لإيجاد بعض الحلول لمصائبهم. إلا أنني تذكرت أن الأمسية القصصية انتهت بعد آذان صلاة العشاء؛ وهو موعد إقفال المساجد في بلدي، ربما من قلة المؤمنين بقيام الليل أو خوفا من لصوص المساجد.

ما زال بعض المارة يزحفون على أرض الشارع، نحو قواقعهم. أما أنا، فأزحف دون هدى، أنظر إلى الطوابق الشاهقة فاغرًا فمي، وأسأل نفسي : ألا توجد قوقعة خالية من بين كل تلك القواقع المرصوفة بعضها فوق بعض؟ ولا أجد جواباً لهذا السؤال، الذي ما زلت أسأل نفسي إياه، كلما طردوني من قوقعة مستأجرة.

الشعلات الصفراء بدأت تنطفئ، ولم يعد أي مارٍ يزحف في الشارع سواي. إلا أن سباق الحلول أوصل عداءً آخر إلى جمجمتي وهو أن أقضي ليلتي في إحدى الحدائق العامة. ولكن في هذا الجو الزمهرير لا أحد يستطيع افتراش الأرض والالتحاف بشرشف من النجوم، فرميت هذا الحل عني، كما أرمي قميصا بالياً، ورحت أبحث في زوايا جمجمتي عن حل آخر، فالجو أصبح زمهريراً أكثر،

كلما زحفت الساعة نحو منتصف الليل، وما زلت أنتظر وصول عدّاء آخر من عدائي سباق الحلول. وها هو قد وصل، ربما أنه الحل الأكثر نجاحا؛ وهو أن اقضي ليلتي في المخفر فالشرطة في خدمة الشعب.

حزمت أمري، واتجهت نحو أول مخفر أعرفه. المخفر ليس بعيداً. حثثت الزحف، وما هي إلا دقائق حتى وصلتُ إلى غايتي. وللمصادفة، وجدت بائع أوراق اليانصيب ما زال يصرخ: يا نصيب. إنه ذاته من كنت أشتري منه أوراق اليانصيب، التي لا تربح. فهممت الخطى نحوه، وقبل أن ينبس ببنت شفة، كانت حقيبتي السوداء قد أسقطته أرضا، وبالسرعة المعهودة من رجال الشرطة في بلدي ألقوا القبض علي متلبسا بالجرم المشهود، فأنا لم أبرح مكاني.

رمتني عناصر الشرطة في غرفة يدعونها النّظارة، كما سمعت من الشرطي صاحب البطن المنفوخ، بعد أن جردوني من كل شئ ما عدا لباسي الداخلي. فغرفة النظارة تفي بالغرض؛ طولها متران وعرضها متران، ورسم على جدرانها نساء عاريات، وكُتبت بعض الكلمات المشهورة كشهرة صاحبها أبو عنترة.

النّظارة واسعة بالنسبة لي، إلا أنني لم استطع النوم؛ ليس بسبب البعوض والبراغيث التي تسكنها، بل بسبب المياه المثلجة التي كان يتناوب صاحب البطن المنفوخ، وحليق الرأس صاحب الشارب المفتول بسكبها على جسدي. ولأن هؤلاء العناصر يتحولون إلى جلادين، بعد منتصف الليل، فقد تعاملوا مع جسدي وكأنه سجادة قذرة، من الواجب عليهم تنظيفها بطرقها بالخيزران.

لكنني، بعد فترة قصيرة من الطرق بالخيزران، استطعت أن أستميل أبو البطن المنفوخة؛ عندما دفعت له خمسين ليرة، ما كنت أدخره لشراء نصف ورقة يانصيب، إلا أنني لم أحزن لفقدانها؛ فقد ربحت بثمنها اتصالا هاتفيا لأحد معارفي، وهو القاص صاحب الشأن الكبير في تلافيف دائرة الشرطة. وما هي إلا نصف ساعة أخرى حتى طلبني المسؤول عن المخفر، وأفرج عني بضمان عنوان قوقعتي الذي لا أعرفه.

الدوائر الحمراء

المدينة المكتظة بأبنيتها المرصوفة بعضها فوق بعض؛ كعلب اللحمة المرصوفة على رفوف المحلات، و أنا أسير مطأطئ الرأس. كل ما يشغل فكري أن نهاية الشهر تهجم بسرعة سيارات الفورمولا، وأن جيوبي تكاد تنضب من النقود، وهذا هو الشهر الثالث الذي تحاصرني نهايته كأسوار السجن، وأنا لا أملك سوى البحث عن عمل.

تقطع أفكاري صورة أبي فائزة، وهو يقول لي: أين أجرة الغرفة يا أستاذ علي؟ وأعاود التفاؤل ثانيًا، ربما أنني سأجد حقيبة مليئة بالنقود، وأنني سأرمي لأبي فائزة رزمة منها، وأنني سأجد عملًا يليق بي يوم غد.. لم أحس بمسافة الطريق من موقف الحافلات إلى بيت أبي فائزة، والذي ما زلت أقطعه، جيئة وذهابًا؛ باحثاً عن عمل، منذ ثلاثة أشهر.

وصلت البيت، ودخلت بابه الأزرق الذي طالما كرهته مفتوحا كعادته، ليتسنى للمستأجرين الدخول والخروج دون أن

يزعجوا أبا فائزة.. دخلت البيت، مسرعًا، ويممت وجهي نحو غرفتي؛ لكي لا يراني أبو فائزة فيطلب أجر الغرفة..

دخلت الغرفة، وأحكمت إغلاق الباب خلفي.. بدلت ثيابي.. طويت بنطالي، ووضعته تحت فرشة الصوف؛ لعلها تجمل ما أصابه من تجاعيد طيلة هذا اليوم، فالمظهر الأنيق أحد أهم الشروط لمن يريد إيجاد عمل في هذه المدينة.

وها أنا أستلقي على ذات السرير، الذي يحمل جثتي، والذي كان يصدر صريرا أحسبه تأوهات؛ كلما كنت ألقي بجثتي عليه، وأظن أن جيشا من النعاس هاجم أجفاني، وتمكن منها وسلبني الوعي. إلا أنني كنت أستعيده، بين الفينة والأخرى.

كلما كنت أسمع تشنج أبي فائزة. وتمر الدقائق عليّ، كما الدقائق البدل ضائعة في مباريات المنتخب الوطني، فتنتهي الدقائق دون أن يحرز المنتخب الفوز، ودون أن يطرق الباب أبو فائزة فيعاود النعاس سلب وعيي دون مقابل.

استيقظتُ صباح اليوم التالي؛ متثاقلا، كأنني كنت أحرث طيلة ليلة البارحة، فيممت وجهي نحو الحمام؛ الذي يحشر

نفسه في زاوية الغرفة، ويستر عورته بملاءة بنية اللون من النوع الرخيص. أخذت حماما سريعا، وقبل أن أخرج، رمقتُ نفسي بذات نظرة الإعجاب التي أستقيها من كلام أمي، عندما كانت تقول: أنت أجمل طفل في العالم، وذلك قبل عشرين عاماً.. خرجت من الحمام، ويممت وجهي نحو شماعة الثياب، وها هو قميصي مشنوقٌ على شماعة الثياب؛ كرؤوس الخراف المشنوقة على واجهات محلات بائعي الرؤوس والمقادم، فارتديته ورفعت فرشة الصوف.. وها هو بنطالي، التركي الصنع، والذي يبدو وكأنه أعيد له شبابه، بعد عملية الشد التي استغرقت طيلة ليلة البارحة، فلبست البنطال، وارتديت نعلي الصينيّ الصنع.

تناولت جريدة ملفوفة من على طاولة صغيرة، قد صححت ميلها بوضع قطعة من الطوب تحت إحدى أرجلها، مسحت حذائي بأطراف بنطالي ومضيت في رحلة البحث اليومية عن العمل. وفتحت باب غرفتي، إلا انني عاودت إغلاقه بسرعة؛ ففائزة (ابنة صاحب البيت) قد رفعت ثوبها، حتى فوق ركبتها بنحو عشر سنتيمترات، وهي تقوم بسقاية أنواع الورود الكثيرة التي قل ما اهتمت بها..

سعلتُ حتى كادت حنجرتي تخرج من مكانها، إلا أن فائزة لم تسدل ثوبها، بل قالت: تفضل يا أستاذ علي؛ فنحن أهل. ثم استقبلتني، لم أنتبه لما كانت تقوله؛ فكل ما كان يشغلني ذلك الصدر المكور الذي يكاد يفرّ من ثوبها الذي فتحت بعض أزراره ليتسنى لها التقاط أنفاسها..

لاحظت أنها أحست بسياط نظراتي، وهي تجلد ذاك الصدر المكور ونصف الفخذ المصقول، فعاودَت ترحيبها: صباح الخير يا أستاذ علي، هلا تتناول القهوة معي؟ فأجبتها: صباح الخير يا آنسة فائزة، شكرا لك لدي عمل كثير اليوم. ثقة فائزة بي كانت تبهجني، فقالت: يا أستاذ علي لا تنادني بـ "آنسة فائزة"، بل قل: فائزة، أو عزيزتي فائزة، وأنا بدوري سأقول: عزيزي علي، إن لم يكن عندك مانع، طبعا.. كان هذا آخر ما سمعته من فائزة قبل أن أودعها وأتجه بوجهي نحو موقف الحافلات، الذي يوصلني إلى المدينة، حيث تكثر الشركات التي تطلب موظفين للعمل.

كنت عند خروجي من الباب الأزرق قد رفعت الجريدة وصححت تلافيفها، ونظرت داخل الدوائر الحمراء التي تضم إعلانات تطلب موظفين لمختلف الاختصاصات. ولم يبق سوى

دائرتين لم أضع عليهما إشارة اكس. فأنا منذ شهر أبحث عن عمل في ذات الجريدة، التي لم أعد أذكر تاريخ صدورها.. كان مكتوبا في الدائرة الأولى "مطلوب موظف للعمل في مجلة اجتماعية".

شرعتُ بقراءة الشروط، وأسقطها على نفسي فأجد الوظيفة وكأنها فصلت على قياسي، وهي: موظف حاصل على شهادة جامعية في الإعلام، وأنا أحمل هذه الشهادة. يجيد اللغة الانجليزية، وبالفعل أنا أتكلم اللغة الانجليزية بطلاقة .. حسن المظهر، فأجد نفسي أرمق نفسي بذات نظرة الإعجاب وأمضي وأنا أحاول استرجاع ذلك الصدر المكور ونصف الفخذ المصقول لفائزة. إلا أن صوت أبو زهير نثر ذلك المشهد وحوّله إلى شظايا، وهو يقول: تفضل يا أستاذ علي، وأنا أمرّ من أمام دكانه، فأجيبه، دون أن أتوقف: شكرا يا أبا زهير.

تعود إلى ذاكرتي تلك الحكاية التي قصها على مسمعي أبو زهير عن بيت أبو فائزة، حيث كان يقول: احذر يا أستاذ علي من هذه العائلة، فهي سيئة السمعة؛ حيث أن أبا فائزة قام بتزويج بناته الثلاثة لرجال كبار السن من دول النفط، مقابل مبالغ مالية كبيرة، ولم تبلغ أكبرهن سن التاسعة عشر، وليس هذا الأفظع في

الأمر، بل إنه قام بتزويج ابنتيه: الكبرى والصغرى للمرة الثالثة بعد طلاقهن الثاني ولم يستمر أطول فترة زواج لهن أكثر من ستة أشهر. إلا أن فائزة، وهي ابنته الوسطى، لها وضعها الخاص فهي بعد طلاقها الأول قررت ألا تتزوج إلا بمن تحب..

"نُعاب" معاون سائق الحافلة قطع سلسلة مذكراتي، وهو يقول: طالع يا أستاذ؟ فأجيبه بهز رأسي، وكأن القط أكل لساني فيتنحى قليلا ليتسنى لي الصعود، وعند صعودي؛ بحثت عن أول كرسي فارغ وجلست.

بدأت ألملم ما تبقى من ذلك الشريط لصدر فائزة المكور وفخذها المصقول في ذاكرتي، إلا أن" نُعاب" معاون السائق عاد وقطع سلسلة ذكرياتي وهو ينعب بالأجرة .. ناولته بعض القطع المعدنية، فنظر إلي بازدراء، ومضى يقطع سلاسل ذكريات الركاب الآخرين. عاودت لملمة أجزاء ذكرياتي، إلا أنني لم أستطع، فبدأت أراجع ما جاء في شروط الوظيفة وأسقطها على نفسي للمرة الثانية فأجدها على مقاسي تماما.

مضت الدقائق مسرعة إلى أن وصلت الحافلة وسط المدينة بأبنيتها الشاهقة وشباك الغثيان التي تلف فضاءه.. نزلت

من الحافلة، واتجهت نحو عنوان الشركة، صاحبة الإعلان، التي لا بتعد كثيراً عن وسط المدينة. وما هي إلا دقائق حتى وجدت هذه الشركة، العنوان يشير إلى مكتب في الطابق الثاني، صعدت البرج مسرعا، وقبل دخول المكتب لفت انتباهي لافتة كتب عليها بخط منمق "مجلة كاثرين الاجتماعية"، مسحت نعلي بأطراف بنطالي ودخلت.

الرواق المفضي الى مكتب السكرتاريا يبدو وكأنه معرض للوحات الفنية، والرتابة تفرض نفسها كأجهزة الأمن على كل شئ في مكتب السكرتاريا، وها هي السكرتيرة؛ ملائكية الوجه وممشوقة القوام، تخرج من وراء طاولتها وترحب بي بحفاوة: تفضل يا أستاذ، كيف لي أن أساعدك؟ قلتُ: شكرا لكِ، جئت من أجل إعلان طلب الوظيفة المنشور . فقالت: تفضل بالجلوس، فمدير التحرير في اجتماع هام مع الحلاق النسائي..

جلستُ على أريكة مريحة، ورحت أسأل نفسي عن فحوى وجود الكوافير عند رئيس التحرير، ورحت أجد أجوبة كثيرة، لعله يجري تحقيقا صحفيا عن مهنة الحلاقة النسائية.. مضت أكثر من نصف ساعة وأنا أنتظر انتهاء الاجتماع، وكل ما كانت تفعله

السكرتيرة هو ترنيم أغنية قد أكلت نصف حروفها، فلم أستطع ترجمتها..

ها هو الفرج يأتي، بفتح باب مكتب باب رئيس التحرير، وخروج شاب في الثلاثين من عمره عرفت من الحقيبة التي كان يحملها، والتي رسم عليها بعض أدوات الحلاقة أنه الحلاق النسائي، وها هي السكرتيرة تقطع دندنتها، وتقول: تفضل يا أستاذ.

دخلت مكتب رئيس التحرير، ولكني صعقتُ عندما رأيت فتاة لا تكاد تبلغ الثانية والعشرين من عمرها. وتبدو، بتسريحتها، كعارضة أزياء. فعرفت فحوى الاجتماع الهام بحلاق الشعر النسائي، وجاءني صوتها؛ معجونًا بكثير من الأنوثة: تفضل، بماذا أساعدك؟ شكرا يا آنسة جئت من أجل إعلانكم عن طلب موظف، وهل تنطبق عليك شروطنا؟ أجل يا آنسة؛ فأنا أحمل شهادة إعلام وأجيد اللغة الانجليزية.

مرّت بضع ثوانٍ، التي ساد فيها الصمت. لكنها قطعت هذا الصمت: وماذا عن الشرط الأخير يا أستاذ؟ أي شرط يا آنسة؟ المظهر الحسن يا أستاذ، فهو مهم جدًا، وها أنا لا أحمل شهادة

بالإعلام ولا أعرف الكثير من مفردات الانجليزية، ها أنا ذا رئيسة التحرير بسبب منظري الأخّاذ.. أما أنت، فأنا آسفة يا أستاذ؛ لا ينطبق عليك شرطنا الأخير.

عندها فقط، اكتشفت سبب تلك النظرة التي بدأت ترمقني بها رئيسة التحرير، منذ دخولي مكتبها، وكنت أظن أنها ذات نظرة الإعجاب التي أرمق نفسي بها، إلا أنني أخطأت كعادتي.. أدرت ظهري، وانصرفت بسرعة دون أن انبس ببنت شفه.. أحسست أن جبلا من الملح رسا بحنجرتي، وكاد يخنقني، ليس لأني فقدت الوظيفة، بل لأنني اكتشفت بأن والدتي، منذ وعيي، كانت تكذب عليّ، وهي تقول: أنت أجمل ابن في العالم.

قررت العودة إلى البيت، لكي ألملم أغراضي وأيمم وجهي نحو قريتي.. بدأ الملح يذوب في حلقي، كلما ابتعدت عن مقر المجلة، وبدأتُ أعاود التقاط أنفاسي، صعدت الحافلة واتجهت نحو بيت أبي فائزة، لم أكن أسمع نعاب معاون السائق أو حركة الركاب وكأنهم كانوا يتنقلون على أطراف أصابعهم، وحتى بعد نزولي لم أكن أسمع صوت المارة أو أبواق السيارات لعلهم أحسوا بمصيبتي، فحاولوا التخفيف عني، بصمتهم المطبق على أرجاء

المكان. ولأول مرة أشعر بالفرح عندما أرى ذات الباب، الذي طالما كرهته.

دخلت بيت أبو فائزة وإذا بفائزة ما تزال بذات الثوب، وما تزال ترش الورود برذاذ الماء؛ وهي تضغط بإبهامها على فوهة الخرطوم ورحبت، قائلة: أهلا يا أستاذ علي، عدت باكرا هذا اليوم ..أهلا يا فائزة، هل تتناول القهوة معي؟ كم أنا محتاج إلى القهوة يا فائزة .. حسنا يا أستاذ علي تفضل.. اجلس وسأحضر القهوة، جلست بجانب البحرة الرخامية وأنا أفكر كيف سأفاتح فائزة بموضوعي؟

ما هي إلا دقائق حتى عادت فائزة تحمل بيدها القهوة، وترتدي ثوبا أكثر جاذبية وعريًا من الذي كانت تلبسه، وتنشر بعض الحلي على مناطق مختلفة من جسمها.. جلست بالقرب مني، وناولتني فنجانا من القهوة، وهي تقول: ما بك يا أستاذ علي، هل أنت مريض؟ فأجيبها: لا يا فائزة، لكني منذ ثلاثة أشهر أبحث عن عمل..

بدت ملامح الدهشة على وجه فائزة، وهي تقول: لكنك تعمل كل يوم، ومنذ ثلاثة أشهر تعتذر عن تناول القهوة معي وتقول إنّ

لديك عمل كثير.. كنت أبحث عن عمل يا فائزة، ولم أجد. لذلك، قررت العودة إلى قريتي..

ساد الصمت بضع دقائق، وأحسست أن أفكاراً كثيرة تهاجم رأس فائزة الصغير، إلا أنها قطعت الصمت، وسألت: ما رأيك أن تعمل لدي؟ وماذا أعمل لديك يا فائزة؟ صمتت قليلا، إلا أنها عاودت النطق لتفاجئني وهي تقول: زوجًا . قلت: وهل توجد مهنة اسمها زوج؟ أجل يا عزيزي علي تتزوجني وأنا بدوري لن أكون ربة عمل صارمة.

ها هي خمسة عشر سنة تمر، و أنا أمارس هواياتي في نشر بعض القصص في مجلة فائزة، التي أعمل كرئيس تحرير لها وزوجا لصاحبتها "فائزة" .

صنع في بلدي

شياطينُ أبناء هذا البلد؛ فقد يضعون للجمل ذنب أرنب، أو للحمار خرطوم فيل، ويعلقون على ظهره لافتة كتب عليها "صنع في بلدي".. قد يصنعون أي شئ، في أي وقت.. ولكن، أي بلد لا تصنع السيارات لا تعتبر بلداً صناعياً. لذا؛ قرر أبو مأمون ،صاحب مصنع ورق الحمّام، الذي أعمل مديراً للمبيعات فيه، أن يخوض هذه التجربة، ويكون أول صاحب مصنع للسيارات في بلدي.

أبو مأمون؛ رجل في الخمسين من عمره، ذو كرش كبير، ومال وفير. عجنته بلاد الغربة، حتى قرر أخيرا العودة إلى البلد، لينشئ مصنعاً للمحارم الورقية. وبعد نجاحه الباهر في إدارة هذا المعمل، قرر أن يخوض تجربة صناعة السيارات المحلية..

جمع أبو مأمون كل الخبراء والصناع المهرة، الذين يعرفهم، لكي يستشيرهم في إنشاء هذا المصنع العظيم، ومن بين الذين جمعهم: أبو أكوب؛ صواج السيارات ذائع الصيت، وكاميران؛ الميكانيكي الماهر. وبعد أخذ ورد ومماطلة من الخبراء من جهة، ومن أبو مأمون من جهة أخرى، توصلوا إلى نتيجة، مفادها: لا يمكنهم أن

يصنعوا ولو حتى دراجة ناريةً دون خبراءَ أجانب. لكنّ أبو مأمون كان مصر على أن تكون سيارته محلية الصنع مئة بالمائة.

أخذ كرش أبو مأمون يصغر حجمه، وكلما كان يجتمع بنا نحن عمالَ معمل المحارم، كان يسألنا أمن المعقول عدم وجود أي شخص يستطيع أن يضع دراسة أولية لمعمل السيارات؟ ومن أين لنا ذاك الشخص الذي يستطيع صناعة سيارة.. بينما جميع خبرائنا لم يسبق لهم أن عملوا، ولو حتى كَصِبْيَةِ تنظيفٍ في معامل السيارات.

غاب الحديث عن المعمل الجديد لعدة شهور، اعتقدنا وقتها أن أبو مأمون صرف نظره عن فكرة المصنع، إلا أنه فاجأنا عندما قام بزيارة معمل المحارم، برفقة عدد من الرجال الأجانب. وبعد سؤالنا عنهم عرفنا أنهم الخبراء الأجانب الذين سيقومون بإنشاء معمل السيارات. وما هي إلا أسابيع حتى بدأ إنشاء معمل السيارات المحلي بخبراء أجانب.

زاد حجم كرش أبو مأمون؛ لأنه كان مرتاحاً لبدء إنشاء المعمل الوليد، ولكنه ما لبث أن عاد وصغر؛ لأن الخبراء الأجانب، وبعد بحثهم الطويل في طول البلاد وعرضها عن محركات وآلات

لصناعة السيارات، لم يجدوا ولو حتى مدخرةً ذات صناعة محلية، وأبو مأمون يصر على صنع جميع أجزاء السيارة صناعة محلية. وبعد الجدل الطويل تنازل أبو مأمون عن بعض الأجزاء الأساسية التي كان يقاتل من أجل أن تصنع محليا .

راسل أبو مأمون بعض الشركات الأجنبية، فحصل على جسم السيارة.. وكلما كانت تعترض الخبراء الأجانب مشكلة كانوا يعرضونها على أبي مأمون. وبعد البحث الطويل، محلياً، أخذ كرش أبو مأمون يصغر أكثر فأكثر، ويتنازل عن الصنع المحلي، ويستورده من إحدى الدول المجاورة، ولم يبق من السيارة سوى أسمها. فجسم السيارة؛ حصل عليه من فرنسا ومحركها ألماني الصنع، والأجهزة الكهربائية من الصين، ولم يبق سوى أن يطلق أبو مأمون عليها اسم، عرض عليه خبراء التسويق الأجانب عدة أسماء أجنبية، إلا أن أبو مأمون أصر على أن يكون اسمها محلي، فجمع الخبراء المحليين وبعد اجتماع طال لمدة ست ساعات، وجدوا أخيراً اسماً محلياً لهذه السيارة فأطلقوا عليها اسم سيارة "أبو مأمون".

مرت ثمانية أشهر على انطلاق إنتاج سيارات أبو مأمون، إلا أنه لم يبع ولو سيارة واحدة من سيارات أبو مأمون.. فقرر أبو

مأمون الاجتماع بالخبراء الأجانب؛ للاستفسار عن سبب كساد السيارات. وبعد الاجتماع، ظهر أن اسم السيارة المحلي هو سبب كسادها.

تنازل أبو مأمون عن اسم السيارة، وأطلق عليها اسم أجنبي، لكنه لم يتخل عن اللوحة التي كتب عليها "صنع في بلدي".. هكذا بدأت صناعة السيارات المحلية في بلدي.

حكايات حب طفولي

هو الحب؛ يتسلل، خلسة، على رؤوس أصابعه كاللص، ليسرق قلوبنا. هو الجني الذي يسكننا؛ يسيطر على كل أفعالنا وكم وددت أن أكون "إسبرطيا"[1] ضعيفا؛ فتقتلني العشيرة قبل أن أكبر وتتملكني آية الحب.

بدأت أول حكاياتي مع الحب، حين كنتُ في مرحلة الدراسة الابتدائية.. وقتها؛ لم أكن أملك سوى بنطال يتيم، هذا البنطال ذو اللون الأزرق والصناعة الوطنية والنوع البيجاني لم يكن غالي الثمن، عرفت هذا عندما اشتراه لي أبي من بائع متجول. لكني من أول نظرة عشقته، أجل أنا أعشق هذا البنطال، وعند ارتدائي إياه أول مرة زاد عشقي له، فصار رفيقي المفضل. فهو فضفاض، ومريح جدا، بالإضافة إلى أنه طويل يخفي ثلاث أرباع حذائي الكالح الوجه، ويجر ورائي.

[1] طبقًا لمعتقدات أهل إسبرطة، كان لا بد أن يُفحص المولود صحيًا من قبل مجلس الشيوخ الإسبرطي ليروا ما إذا كان لائقًا بدنيًا وصحيًا ليُسمح له بالبقاء على قيد الحياة. وفي حالة عدم اجتياز الطفل للاختبار، كان يُترك بالقرب من جبل تيجيتيس ليموت في العراء.

في اليوم الأول، تركته ينام على سريري، بينما أنا بقيت ساهرًا طيلة الليل؛ وأنا أتأمل تفاصيل جسده الأزرق الشاحب، أعدُّ أزراره والندب البنية الموزعة على ساقيه، وأنفض رذاذ الغبار المنهمر من السقف عن جسده الجميل. بقيت ساهرًا حتى أنهكني النعاس، فرميت بجثتي على الأرض وأنا أحاول طبع آخر صورة له في مخيلتي، قبل أن أنام. ورغم حصار النعاس لي، لكن النوم جفاني، وخشيت أن أنام فلا أجده مضطجعا كأمير وسيم على سريري.

نعم هذا هو حال العشاق؛ يجافيهم النوم، سهارى على راحة من يحبونهم.. غفوت قليلًا وأنا أحلم به، وفي صباح اليوم التالي استيقظت مذعورًا على أثر كابوس لعين. في هذا الكابوس يظهر ابن جيراننا؛ حسام الأجرب، وهو يقبض بكلتا يديه الكبيرتين على إحدى ساقي بنطالي، وأنا أقبض على ساقه الأخرى، كنت أبكي وأحاول تخليص البنطال من بين يديه وأنا أتوسل إليه، قائلا : أرجوك إنه بنطالي، فيشد حسام الأجرب رجل بنطالي بقوة، ويقول: اذهب يا ولد، إنه بنطالي، بنطال الأقوياء.. فبقيت أشد، وحسام يشد، حتى تمزق البنطال نصفين، فرما حسام النصف الذي ما زال بيده في وجهي وهو يضحك..

عندها استفقت، والدموع تكاد تغرق وجنتيّ، فمسحت دموعي ونظرت باتجاه البنطال، فإذا به ما زال ممددا على سريري مبتسمًا كطفل رضيع.. خفت أن أوقظه؛ فأقطع عليه حلما جميلا، لكني كنت مضطراً، إذ يجب أن أرتديه، وأريه لكل أبناء حارتنا، وأرى نظرات الإعجاب به تفر من عيونهم، والحسرة تعتصر قلوبهم.

رفعت صديقي عالياً بين ذراعي، وكأنه رضيع.. قبّلته، وقلت: صباح الخير يا صغيري كيف كانت ليلتك؟ ثم ارتديته، ومضيت نحو الحارة؛ لعلي أجد رفاقي يلعبون بأزقتها..

بدأت أشعة شمس الصباح تلفح وجه بنطالي، لذلك اخترت مكانا ظليلا أقف فيه؛ لأقي وجهه الجميل من أشعتها المحرقة، أظن أن الوقت مبكر لخروج أبناء حارتنا للّعب، لكني لن أعود الى البيت قبل أن أريهم التحفة التي أرتديها.

لم يمض وقت طويل، حتى بدأ أولاد الحارة بالتجمع في أزقتها إيذاناً ببدء لعبتهم، فبدأتُ أتبختر؛ جيئة وذهابا في بنطالي الفضفاض، لكي يروه ،إلا أنهم لم ينتبهوا له، بل إنه كلما اقترب مني أحدهم، يقول: ينقصني لاعب، ألا تلعب معنا؟ فأجيبه: لا يا أخي، اذهب عني، فأنا أرتدي بنطالي الجديد، وأخاف أن تمزقوه لي،

فيقول: أيُّ بنطالٍ هذا يا رجل! ويمضي تاركا إياي بأشد لحظات الحزن، أمضيت ساعات الظهيرة وأنا أمشي في أزقة الحارة باحثاً عن أحد يقول لي : ما أجمل بنطالك، من أين حصلت عليه؟ ولكن لا حياة لمن تنادي، قررت ساعتها أن أعود الى البيت من ثم أجرب حظي في أزقة الحارة مساء فلم يبق غيري في شوارعها..

فورًا، دخلت إلى غرفتي.. نزعت بنطالي، ونظرت إليه فوجدت وجهه مغبراً حزيناً، وأطرافه بدأت تهترئ، فقلت له بحنان: لا تحزن يا صديقي سيعجبون بك في المساء.. احتضنته ثم تركته يرتاح على السرير.. مضت بضع ساعات وأنا أدور بلباسي الداخلي في غرفتي مطأطئ الرأس، وكأني أبحث عن حل لحيرتي في أرض الغرفة..

عند المساء عاودت خروجي إلى الحارة؛ باحثاً عن أحد يهتم بي وببنطالي الجديد.. أسير في شوارعها، بخطى بطيئة، وكأنني أقيسها. ولكن، كعادة أولاد الحارة، لا يهتمون بشيء سوى بلعبة الكرة، إلا أنّ حسام الأجرب كان يخترق شارع الحارة الرئيسي بجسمه الضخم؛ يحمل بيده كيسا ممتلئاً بالخردة كعادته.. كان يشق الشارع، بخطاه الثقيلة، حتى أنه مر بجانبي دون أن يلحظني أو يلحظ بنطالي، حتى حسام الأجرب الذي عود أولاد الحارة على

تحرشه بهم وسرقة كل أشيائهم الجديدة لم يبهره هذا البنطال، ذهولي بتجاهل حسام الأجرب لبنطالي جعلني أستشيط غيظاً، وأصيح بحسام الأجرب : هي يا أجرب، هل أصبت بالعمى؟! ألم تر بنطالي الجديد؟ التفت إليّ حسام، رمى من يده كيسه العفن، وهجم علي كالثور ركضت لكي أفر من بين يديه كالعصفور، لكن بنطالي الفضفاض بدأ يزحف عن خصري حتى وصل إلى أسفل قدمي. ومن شدة خوفي نزعته وأكملت ركضي باتجاه بيتنا لا أرتدي سوى لباسي الداخلي. ومنذ تلك الحادثة لم أر بنطالي العزيز، لكن صورته الزرقاء الشاحبة ما زالت ملتصقةً بذاكرتي.. هكذا انتهت أول قصص عشقي الطفولي.

أما عن قصة الحب الثانية، فجرت أحداثها عندما أصبحت في المرحلة الإعدادية.. أذكر أن أبي استطاع، بعد جهد كبير، أن يحصل لنا على خط هاتفي. وقتها، لم يكن قد سبق لأحد من حارتنا أن استطاع الحصول على خط هاتفي، سوى جارنا أبو محمود بائع المواشي.

اعتقدت في بداية الأمر أن هاتفنا أحمر السماعة أخرس: فها هي ثلاثة أيام تمر وهو جالس على عرشه دون أن يتفوه بكلمة،

كنت أراقبه طيلة الأيام الثلاثة، مترقباً أي حركة تصدر عنه، فسألت أبي: هل هاتفنا مريض يا أبي؟ ضحك أبي كثيراً، وقال: لا يا بنيّ، الهواتف لا تمرض، إذاً ما باله يا أبي لا ينطق بكلمة؟ عادت ضحكة أبي لتملأ أرجاء المكان، وكأني أدغدغه من أصابع قدميه، ثم رفع سماعة الهاتف وألصقها بأذني، فلم أسمع سوى طنين حاد كاد يخرم أذني فابتعدتُ عن السماعة بهلع، لكن أبي هدّأ من روعي، وقال: لا تخف يا بني الهواتف لا تعض، ثم لمس أزرار السماعة ثلاث مرات، وقال: اسمع..

اقتربت من السماعة، بتردد، وكأني أمشي على حبل. وعند لمس السماعة لأذني فوجئت من رقّة ذاك الصوت الماسي المصقول يتدفق منها كالماء المتدفق من شلال عنب. بضع كلمات كانت تكررها فتاة طيلة المكالمة.

خرج أبي من الغرفة وتركني وحدي برفقة تلك الفتاة التي تقول: عند الإشارة، فأجدني أقول: أشري يا عمري، وأنا ألبي ثم تقول: تكون الساعة، فأقول: أجمل ساعة في حياتي ساعة سماع صوتك، ثم تجاوبني الخامسة والنصف، فأقول: ما أجملها من ساعة.

مضت أيام طويلة، وأنا لا أغادر غرفة الهاتف، بل لا أبعد سماعة الهاتف عن أذني التي بدأت تؤلمني بشدة، لكني لا آبه بألمها، وأواسي نفسي، قائلا: إنه أَلَمُ الشّوقِ أن أعشق هذه الفتاة وهي تعشقني، فكلما ضغطت على أزرار الهاتف، وفي أي وقت أجدها، منتظرة تردد كلماتها الجميلة، وأنا بدوري أجيبها بما أعرف من كلمات الغزل.

في أحد الأيام، حيث كنت مضطجعًا على ظهري في أرض الغرفة زارني صديقي محمود؛ ابن بائع المواشي، وهو: أكبر مني، أشقر السحنة والشعر، وتنتشر على وجهه الكثير من الشامات البنية، رفيع الجسم؛ لذلك كنا نطلق عليه لقب محمود المعكرونة..

سألني محمود: من تغازل فأجبته، بشيء من العنفوان والتكبر: حبيبتي.. حبيبتك !أجل حبيبتي، تعال واسمع صوتها.

وقبل أن أناوله السماعة قلت لها: يعز علي أن أتركك لبضع دقائق، ولكني أريد أن أعرفك على صديقي محمود.. ناولت محمود السماعة، وعندما سمع صوتها بدأ يضحك ضحكة هستيرية أزعجتني كثيراً.. هذا المحمود يضحك مع حبيبتي! وأكثر من ذلك أغلق السماعة في وجهها!

حال انتهائه من ضحكته، سألته :ما بالك يا محمود، لماذا أغلقت السماعة في وجه حبيبتي؟ أجابني: حبيبتك هذه تتكلم في كل الهواتف.قلت غاضبا: ما بالك يا أخي كيف تتكلم بهذه الطريقة عنها؟ لا تغضب يا صديقي؛ إن حبيبتك ليست بشر، بل تقنية حاسوبية، فهي تجيب على كل من يطلب هذه الأرقام. لم أفهم كلام محمود، في بادئ الأمر، وخلت أنه يغار مني؛ لأنها تتكلم من هاتفنا وليس هاتفهم..

خبيثٌ هذا المعكرونة وكأنه يدور مع الأفكار في رأسي، فقال: إذا لم تصدقني، تعال معي إلى بيتنا، وسأسمعك صوتها.. وافقت على اقتراحه، دون تردد، لكي أثبت له أنه مخطئ..

هاتف بيت أبو محمود أصفر مقيت، مرمي على الأريكة، يبدو أنه مرتاح بجلسته كفرد من العائلة. رفع محمود السماعة وضغط على نفس الأزرار، التي اعتدت أن أضغطها لأطلب حبيبتي، ثم ناولني السماعة بثقة مستفزة دون أن يتأكد من الرقم .

وضعت السماعة على أذني فإذا بذات الصوت الصقيل، ينساب من سماعة بيت أبو محمود. فوصلت حرارة الدم في رأسي إلى أعلى الدرجات، وأظن أن كلام الغزل في رأسي قد تبخر فأصبحت

أجيبها عندما تقول: عند الإشارة .. بقولي: يا خائنة، تؤشرين لمحمود المعكرونة! ألم تجدي أفضل منه لتخونيني معه، فتقول : تكون الساعة، وبدوري أرد :جعلها آخر ساعة لك بالحياة فترد : السابعة، وأجاوبها: أيتها الببغاء النتنة ألا تحفظين سوى هذه الكلمات. وأجد نفسي أغلق السماعة في وجهها، دونما تردد، ولكني وبعد مرور الكثير من الوقت ما زلت أضغط على نفس تلك الأزرار؛ لأسمع صوتها الدافئ كشمس الربيع، هو الحب الذي يخترقنا كجدار الصوت ويتركنا وراءه مذعورين.

قصة حب آخر جرت؛ وأنا مشرف على دخول المرحلة الثانوية، عندها كانت الأجواء السياسية عاصفة، لم أكن قبلها مولعا بإدمان مشاهدة الأخبار، بل كل ما كنت أشاهد القليل من الأغاني وبعض المسلسلات، لكن واظب أبي على معرفة أخبار الحرب والدمار التي كانت كالخبز اليومي في إحدى الدول المجاورة، ولوعيي المتزايد مع تزايد سني فقد شارفت على دخول المرحلة الثانوية التي تتطلب مني توسيع مداركي، كل هذه الأسباب أجبرتني على نسيان كل ما كنت أشاهده قبل هذه المرحلة.

أصبحتُ أواظبُ على حضور نشرات الأخبار والبرامج الحوارية. كنت أعتقد أنني لن أسقط في مستنقع الحب مرة أخرى. لكني ما لبثت أن رأيت تلك المذيعة؛ مذيعة الأخبار.. لحظة رؤيتها عرفتُ أنني لن أتوب عن الحب، فما أن شاهدتهاحتى تدفق ذلك الإحساس، كالدم في شراييني وكأن دمي معجون بهذا المخلوق.

مذيعة الأخبار تكبرني بالسن، لكن الحب لا يتوقف عند الزمن،مع حضوري المتكرر لنشرات الأخبار التي تقدمها حبيبتي كنت سارحا في محياها، لا يحزنني عدد الجثث التي تعلن عن سقوطها في الدولة المجاورة، أو عدد الأبنية المهدمة، أو عدد اللاجئين الذين بدؤوا يتدفقون إلى بلدنا بل كل ما كان يدور في رأسي هو سبيل الوصول إلى حبيبتي.. كنت أنتظر حضورها كأنني أنتظر خبراً سعيداً..

كنت أنتظر طلة عينيها الحزينة المنذرة بسقوط المطر، كلما مر خبر عن الأطفال المندثرين كعصافير جنة نتيجة رصاص الأعداء، لجة صوتها المخنوق، كلما تلفظت بخبر عن نساء ثكالى بأبنائهن أو أرامل، كل نشرة أخبار تقدمها يسقط الكثير من الشهداء، ويزداد حبها في قلبي، في تلك الأوقات لم يكن الشعر يعني

لي الكثير ولكن الحب يصنع المعجزات، فصرت بعد كل نشرة أخبار أكتب لحبيبتي قصيدة وكلما كتبت قصيدة كنت أبعثها لحبيبتي على عنوان مقر التلفزيون الذي تعمل فيه..

بعد مرور كل تلك السنوات، ما زلت أذكر آخر رسالة كتبتها لها. كانت تقول: حبيبتي نسرين، كم أنا مشتاق لك؛ وأنا أشاهد نشرة الأخبار التي قدمتها اليوم. كتبت لك هذه المشاعر، ربما أنها لا تمت للشعر بصلة؛ ولكنها صادرة عن فؤادي:

أعجب يا سيدي من مذيعة الأخبار

أعجب فكيف ترقد في نهاية النهار

فنصف نهارها انفجار والنصف الثاني انتحار

ونصف ليلها أسرار.. وباقيه كعداد الحوار

فكيف تنام وهي تعرف أن داو جونز قد ينهار

وتعرف في غدها ستقضي ثورة على تيار،

أو يطغى التيار على الثوار

وكيف تحب وتعرف أن الأمر محال

وتعرف أنها ستمطر وسيضرب شاطئها إعصار

وتعرف كيف تدور الأرض ومتى تنخسف الأقمار؟

وتعرف أنها ستجن أو تنهار

ويصبح عمرها شريط أخبار .

أو خبر عاجل يمر على شاشات التلفاز

رحم الله مذيعة الأخبار

أودعها في نهاية الرسالة، وأخبرها أنني عرفت أنك تزوجت من رجل أعمال من ذات الدولة، التي كانت تفقد الكثير من أبنائها ثم أخبرها أن كل شئ انتهى بيننا.. أنا ما زلت نفسي والحب هو ذاته، وما زال دمي معجونا به وما زلت أنتظر قصة حب جديدة على الرغم من مرور كل تلك السنوات.

الميت الذي طالت رجلاه

"لا حول ولا قوة إلا بالله الدائم وجهُه سبحانه"

هكذا بدأ أبو طلال حديثه لي، بعد أن جلس أمامي، على ذات الطاولة التي اعتدت أن أجلس على أحد كراسيها، والتي احتلت له ركنا منفردا في زاوية إحدى المقاهي الشعبية، والتي حجب سحاب دخان النراجيل سقفها. وأكمل أبو طلال حديثه بسؤالي عن تكلفة نشر عزاء على إحدى صفحات الجريدة التي أعمل محرّرًا فيها، فأجبت عن سؤاله بسؤاله عن المتوفي، فأجابني وملامح الحزن تلبس وجهه: إنه صديق طفولتي وشبابي يا أستاذ علي؛ أبو ممدوح، وأضاف: غدار هذا الزمن؛ لقد رحل في عز شبابه.

وجه أبي طلال كان يخلع لباس الحزن ويرتدي قميص الدهشة، عندما وجدني أقاطعه،سائلا: ألم يبلغ الخامسة والستين من عمره؟ أجل يا أستاذ علي؛ خمس وستون سنة قضاها بالعمل الجاد والدؤوب، وطلب العلم. أتعرف يا أخي علي دائماً كنت معجباً بأبي ممدوح؛ فقد كان صديقي منذ نعومة أظفاره، دخلنا المدرسة الابتدائية معا وكان متفوقاً في دراسته، وبعد أن اجتزنا المرحلة

الابتدائية انتقلنا إلى المرحلة الإعدادية، لكن هجوم سن المراهقة المبكر على أبي ممدوح حال دون إكماله هذه المرحلة. آهٍ من سن المراهقة..

ما علينا، يا أخي علي، دعني أكمل: انصرف أبو ممدوح للتجارة، وتاجر في كل شئ.. وللحق هو تاجر بارع. صحيح أنه تعرض للسجن عدة مرات، ولكنه في كل مرة كان يخرج من السجن برئ الذمة، فلا يوجد شئ يقاضونه عليه.. وما هي إلا بضع سنوات حتى أصبح من أغنى أغنياء الحي،انقطعت أخباره فترة ليست بالوجيزة. كان إخوته يقولون لنا إنه ذهب للعمل في دولة مجاورة.. وما لبث أن عاد ولكن ثروته زادت أضعافاً.

صمت أبو طلال، قليلا؛ ليتسنى له استنشاق نفس من نرجيلته، بعد أن أحضرها صبي النراجيل ذو الثياب المزركشة، والتي تضفي مع هيئة النراجيل النحاسية العتيقة على المكان طابعا تراثيا محببا لدى أهل هذه المدينة، وبعد استنشاق أبي طلال عدة أنفاس وزفرها، استطرق يقول: أتعرف يا أخي علي، يقولون إنه لم يشاهد زوجته إلا في ليلة العرس..

كل هذا الكلام كان يدور في فلك ، وأنا أدور في فلك آخر، يعبق دهشة لكن الرجل أعادني إلى وعيي عندما سألني: أتعرف يا أستاذ علي الغزو الأمريكي للعراق؟ فأجبته بصوت مرتفع (وكان كل ما يتعلق بالسياسة يجب أن يقال بصوت مرتفع): مع أنني محرر صفحة الحوادث لا علاقة لي بالصفحات السياسية، و من لا يعرف هذا الغزو المشؤوم..

يتابع أبو طلال: عندما سمع صديقي أبو ممدوح بهذا الغزو ، انتفض وهب مع أبنائه ليدافع عن أهل العراق.. يا إلهي ما أقوى قلبه!.. إنه أشجع رجل قابلته في حياتي. أتعرف يا أخي علي كيف مات؟ لا يا أبا طلال لا أعرف.. لقد ذهب نصف عمرك.. سبحان الله لقد كان يتوضأ ليصلي قيام الليل زلت رجله فضرب رأسه بالمغسلة ومات، سبحان الحي الذي لا يموت ويقولون إن سبابته اليسرى تشير باتجاه القبلة.

لهيب الجمر عند استنشاق أبو طلال الدخان من نرجيلته، ونفثه في الجو، كالدخان المتصاعد من جرار الفول النابت على عربات الباعة المتجولون، أعاد شريط ذاكرتي إلى الحديث الذي جرى بيني وبين أبي طلال على ذات الطاولة قبل عدة أشهر؛حينها

كان أبو طلال يقول لي عن أبي ممدوح، والشرر يتطاير من عينيه: متى سيموت هذا العجوز السكير، لقد أخذ عمره وعمر غيره.؟

أتعرف يا أخي علي! والله لم أكن أحبه منذ كنا في المدرسة الابتدائية، فقد كان أبو ممدوح من أغبى الطلاب وأعطوه شهادته الابتدائية، لكي يتخلصوا منه وانظر ماذا فعل في المرحلة الإعدادية..

لقد طردوه من المدرسة على أثر محاولته تقبيل ابنة المدير عنوة.. يا إلهي كم كان شريرا، أتعرف أنه كان يتاجر بالمواد المسروقة، لقد ألقت الشرطة القبض عليه عدة مرات ولكنه في كل مرة كان يخرج بإحدى الطرق الملتوية..

لقد غاب لفترة طويلة، فقال أهله: إنه يعمل في إحدى البلدان المجاورة، ولكن جارنا أبو أحمد قال لنا وقتها: إنه رآه في السجن، ولكن لم يصدقه أحد، لأن أبا أحمد دخل السجن على إثر شهادة زور..

آه يا أستاذ علي.. استغفر الله.. لا يجب أن نحكي عن الأعراض، ولكن أتعرف زوجته ليلى؟ يقولون إنها كانت حامل منه

عندما تزوجها، وكان بطنها المكور يكاد يصل إلى حلقها، أستغفر الله ، والله لا يجب أن أتكلم عن الأعراض، ولكني لا أفتري هذه هي الحقيقة أتعرف يا أخي كيف أتى جريحا من العراق؟

كان أبو طلال يسأل ويجيب، دون أن أنبس ببنت شفة، فتابع قبل أن أجيبه عن سؤاله: لقد كان يُهَرِّبُ السّلاح، أجل يشتري الأسلحة من العراق بسعر زهيد ويهربها مع ابنيه؛ ليبيعها في البلد بأسعار غالية، وهذا ما يفسر ثروته الطائلة..

كل هذه الذكريات، كانت تعود إلى مخيلتي، وأبو طلال ما زال يستنشق نرجيلته دون أن يتكلم، وملامح الحزن على وفاة صديقه تعلو وجهه، إلا أنه قطع صمته وهو يقول: أتصدِّقُ يا أخي علي؛ عندما ذهبوا لزيارة قبره في اليوم التالي لدفنه وجدوا أن طول قبره قد زاد من ناحية القدمين ما يزيد عن نصف متر؟! أهكذا يوسع الله على عباده الصالحين يا أستاذ علي..

ذكرني سؤاله بكلام أبي أحمد؛ شاهد الزور عندما كان يقول لي: الأموات قد تطول أقدامهم، عندها قطع أبو طلال علي ذكرياتي بسؤاله لي: لم تخبرني كم يكلف نشر العزاء؟ عندها

أجبته :مائتي ليرة. قال: :كثير، يا أستاذ علي كثير ، وعاود استنشاق الأنفاس من نرجيلته بصمت.

المشروع العظيم

"آهٍ، لو تعرفون يا سادة كم هو مشروع عظيم.. سيريح الكثير من أبناء هذه البلدة، أجل سيريح الكثير بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. بالإضافة إلى أنه سيؤمّنُ فرصاً لأبنائنا العاطلين عن العمل،والله يا سادة ستفتخرون بما سننجزه" " .

.هكذا بدأ كلامه رئيس البلدية أثناء الاجتماع، كان كل أعضاء مجلس البلدية يحدّقون به بنظرة الإعجاب التي ما زالوا يحدقون إليه بها منذ كانوا طلاباً في الثانوية. عندما كان يمر في الشارع كانوا يشيرون بأصابعهم نحوه: ها هو رئيس البلدية يمشي في الشارع مثل الآخرين، منذ ذلك العهد، وحتى الآن، ورئيس البلدية في مكانه، وكأن منصب رئيس البلدية فُصّل على مقاسه، فلم يجرؤ أحد منذ ذلك الوقت على منافسته في الانتخابات البلدية.

استدرك رئيس البلدية، قائلًا: إلا أن بعض المشكلات ستعترضنا يا سادة.. لا يهم، فمع رئيس البلدية تحل كل المشكلات..

أتريدون أن تعرفوا ما هي هذه المشكلات؟ جميع أعضاء مجلس البلدية مثل الكورس: نعم يا رئيس أخبرنا عن هذه المشكلات.

سأخبركم يا سادة:أبو يوسف؛ ذلك الشيخ الخرف، سنقيم مشروعنا على أرضه، ليس كل أرضه، بل جزء صغير من أرضه. لعلكم تودون أن تعرفوا لماذا أرض أبي يوسف لا غيرها؟

كان رئيس البلدية يسأل، ويجيب،دون أن ينطق أحد من أعضاء المجلس بكلمة، فيعاود الكلام: لأن أرض أبي يوسف في وسط البلدة، بالإضافة إلى أنها قريبة من البلدية، ويجب أن يستفيد أبناء البلدية أيضا من هذا المشروع، ألسنا بشر يا سادة، ويجب أن نرتاح أيضا؟ فيجيب أعضاء مجلس البلدية : أجل نحن بشر.

إذاً أرض أبي يوسف هي المكان الملائم لمشروعنا العظيم، هل أنتم موافقون يا سادة؟ وقبل أن يرفع أعضاء المجلس أيديهم، قال رئيس البلدية: إذن؛ موافقون بالإجماع، ويكمل: إذا سنبعث إنذاراً نستملك بموجبه أرض أبي يوسف.

من معرفتي بأبي يوسف، كان يبدو عليه أنه رجل حكيم لا يمتلك سوى قطعة صغيرة من الأرض يعيش من خيراتها، بالإضافة إلى أنه رجل كريم، ولو أنهم طلبوا منه أحد أفراد عائلته للمصلحة العامة لأعطاهم إياه، دون تردد، إلا أن أبا يوسف رفض تسليم أرضه، بالإضافة إلى أنه رفع دعوى على البلدية فخسرها، ومن يستطيع أن يربح دعوى ضد البلدية؟! إلا أن المحكمة قررت وكمكافأة؛ لتضحيته الإجبارية أن تطلق اسمه على المشروع.

ساءت أحوال أبي يوسف بعد أن استملكت البلدية أرضه، وبعد أن قرر أهل البلدة مقاطعته، وكلما كان يحاول إقناعهم بعدم جدوى هذا المشروع، كانوا يسدون آذانهم عن السمع وينعتونه بعدو المصلحة العامة، عندها كان يقول لهم: وأي مصلحة عامة في مثل هذا المشروع؟ فيجيبونه: سيربح الكثير من أبناء البلدة، ويؤمن فرصاً للعاطلين عن العمل وربما سيجلب القطاع الأجنبي للبلدة، فيسألهم: كيف سيفعل ذلك كله؟

بدأت جرّافات القطاع العام بتسوية الأرض، وتعاقدت البلدية مع البنائين لإنشاء هذا الصرح العظيم، وكلما كان

العاملون يرون أبا يوسف، كانوا يقولون له: أنظر يا عدو المصلحة العامة، لم ينته المشروع، وعمل نصف أهل البلدة فيه.

كان أبو يوسف باقيا على إصراره الأول؛ بأن هذا المشروع سيفشل، ويصر أبناء البلدة، وخصوصا أعضاء المجلس البلدية، على أن أبا يوسف عدو للمصلحة العامة.. وعلى الرغم من أن المشروع شارف على الانتهاء إلا أن معظم أعضاء مجلس البلدية لا يعرفون ما هو وكيف سيريح المواطنين.. وكلما كان يسأل الناس أحد أعضاء مجلس البلدية عن المشروع، كانوا يقولون: ربما أنه مستوصف سيعالج الكثير من المرضى، أو ربما أنه معمل للنسيج سيستوعب عدداً كبيراً من أبنائنا العاطلين عن العمل، فيفرح السائلون ويكفون عن السؤال.

وحدهما؛ أبو يوسف ورئيس البلدية، كانا يعرفان ما هو هذا المشروع العظيم. مرت الأيام، سريعة، وأبناء البلد ينظرون إلى هذا المشروع العظيم، ويحدث كل منهم نفسه عن هذا المشروع ويجد كل واحد جواباً يرضيه.

الرياضيون يقولون: إنه نادٍ يا أخي، وكبار السن يقولون: إنه ملهى تقدم به النراجيل وطاولات الزهر، وبعضهم يقول: إنه حانة بإشراف الدولة..

وحده أبو يوسف يعرف ما هو المشروع، بالإضافة إلى رئيس البلدية، لذلك وفي أحد الأيام قام برفع دعوى ليزيلوا اسمه عن الصرح العظيم ،إلا أنه خسرها مرة أخرى، وهل يوجد في البلد من يستطيع ربح قضية رفعت ضد البلدية ؟!

تفاجأ سكان البلدة من تصرف أبو يوسف، حتى أنهم اعتقدوا أنه جنّ، فزاد حقدهم عليه، وكلما كانوا يرونه كانوا يقولون له: ومن لا يتمنى أن يكون اسمه مرتبط بهذا الصرح العظيم.

ها هو يوم الافتتاح، وجميع أبناء البلدة متجمهرون أمام هذا الصرح: فرقة المدرسة النحاسية تعزف مانشتات وطنية، صبايا البلدة يلبسن ثيابهن المزركشة، وكأنهم في عرس إحداهن، أشرطة الزينة تمتد على طول الشارع.. وحده رئيس البلدية يبدو متوتراً، فجرت العادة أن من يقوم بتدشين أي مشروع، عليه أن يجرب خدمات هذا المشروع، فمثلا: عندما وضعوا أول عامود

كهرباء في البلدة أضاء مدير مؤسسة الكهرباء مصباحاً.. صحيح أن المصباح انفجر بعد إضاءته بقليل، لكنه أضاء، وعندما قام مدير الري بتدشين خزان الماء الكبير فتح صنبور ماء، صحيح أن الماء لم ينزل بسبب انسداد بالأنابيب إلا ان مدير الري فتح الصنبور ونزلت بعض القطرات.

أما رئيس البلدية، فكيف سيجرب خدمات هذا الصرح أمام هذا الحشد الكبير من الناس؟ الجميع متشوق لأن يجرب خدمات هذا الصرح، لعله يريحه. لكن أبناء البلدة غيروا رأيهم بعد أن رفع رئيس البلدية الستارة التي تخفي خلفها لوحة سوداء كما لو أنها تخفي عورة كتب عليها :قام رئيس البلدية بتدشين مراحيض أبو يوسف العامة.

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
الرجل... الحمار	٩
من حكايات أصحاب البيجامات المقلمة	١٩
كيف وجد كل هؤلاء الرجال نساءهم	٢٨
لولا تربيتنا المنزلية	٤٠
مدينة القواقع	٤٥
الدوائر الحمراء	٥٠
صنع في بلدي	٦١
حكايات حب طفولي	٦٥
الميت الذي طالت رجلاه	٧٧